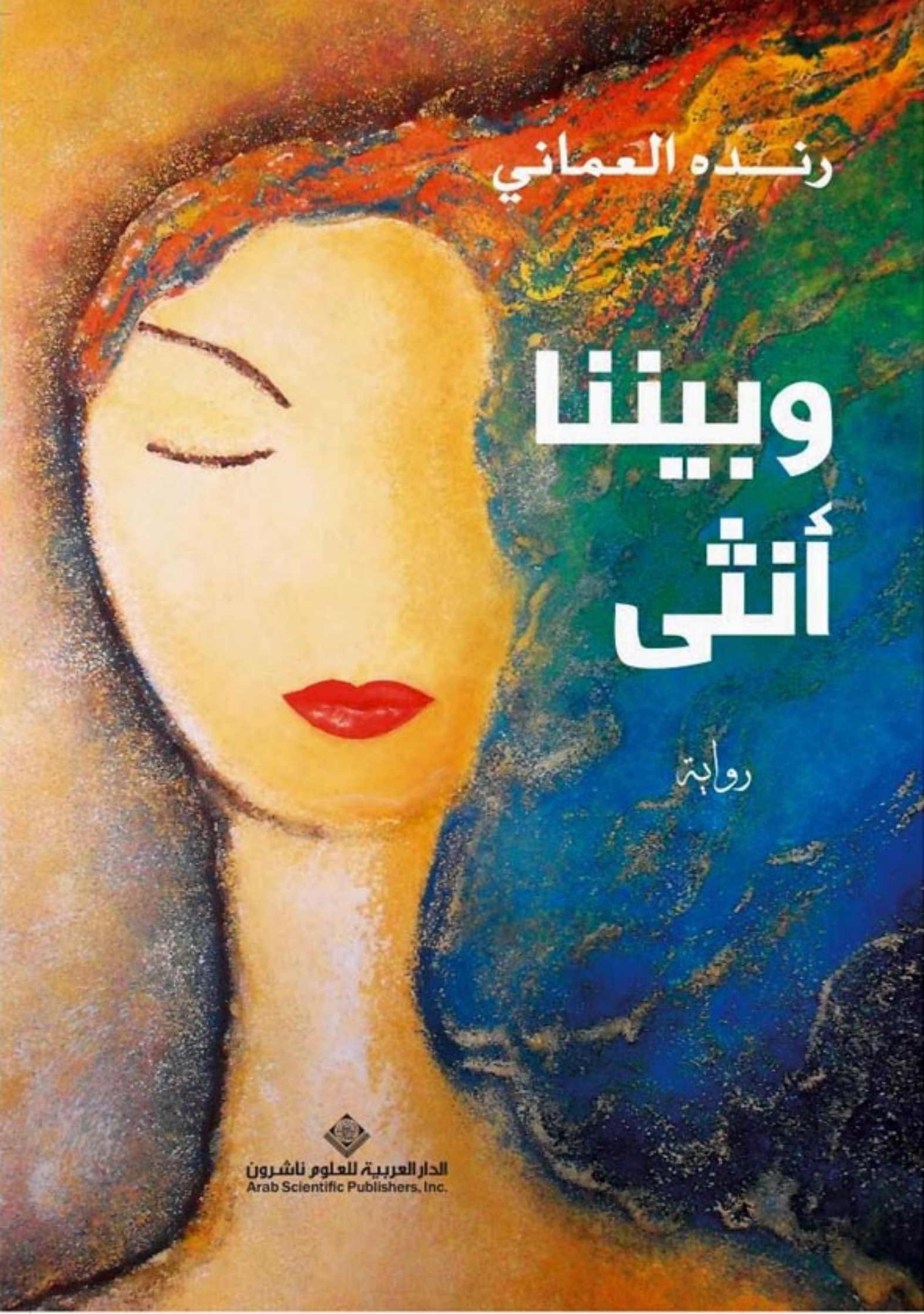
رنـــده العماني
وبيننا أنثى
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

وبيننا انثى

وبيننا انثى

رنده العماني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-1040-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

تباغتني دوما... وفجأة...

رغبة الشروع بحلم جديد...

فاستغفر ربي وأتدارك لحظاتي.....

وابدأ بفرز أحلامي...

أهي على رف الواقعية ام على رفوف المستحيل...

رنده العماني

"تذكروا أنكم حشوتم رأسي كل لحظة بأن أي شـــيء قادم من المجهول إنما يحمل نوايا الشر معه، وان القادمين لا بد أن يكونوا وحوشاً. لم تتحدثوا أبداً عن علاقـــة.. تحدثتم دائماً عن الغزو والقبر والمجهول المرعب الفتاك.. لم تقولوا أبداً أن المجهول قد يكون شيئاً طيباً مسكيناً يمد يده دون سلاح.. لقد حشوتموني بالرعب وبرغبة شريرة اسمها الدفاع عن النفس، ذلك لأنكم أنـــتم أنفســـكم أشرار"

غسان كنفاني

1

على هذه الاوراق ابعثر ذاكرتي... فقد مللت استرجاعها بصمت.. عل الكلمات لها وقع آخر في نفسي المثقلة بالحنين.. علها تتماهى في قولبة هذا الواقع كي استوعب منه رؤوس الاقلام.. لا التفاصيل.. علها تقتات من حزني مايسول له الرحيل...

في زاوية مريضة بالملل.. جلست.. جدران منسية مملوءة بتفاصيل يكسوها الغبار، وفي مابينها يستنزف النهار وقتي ويستنزف الليل حنيني.. وبين استنزاف وآخر ترتعش ذاكرتي وتمضغني الوحدة على مهل..

مكان ضائع يحتويني ويمنحني خلوة بنفسي بعيدا عن الجنون الذي انتشر خارج هذه الامتار، نفسي التي كنت أظنني أعرف حتى بلغت الواحد والعشرون من عمري.. نفسي التي اضعت منذ ذلك اليوم فبدأت معها علاقة جديده علني افهمها اكثر.. نفسي التي ارتطمت بجدار فاصل بين المباح والمحضور... تسترق النظر لحلم أزف الرحيل.. تتخبط عبر أبجدية مبهمة الحروف.. محشورة بين آآه ونعم...

لكم كنت سعيدة الى اقصى حدود السذاجه.. مثالية الاحلام.. مثالية الطموح.. اسير على جسر ممتد، ينتمي لقوانين الجاذبية الأرضية، لم أكن اعرف حينها أني ساقع في هاوية الخذلان.. اتذكر ايامي بلذة الجائع وتضور المشتاق.. ملامح ابي الممتلئة نقصا والذي فقدت مذ كنت في الرابعة من العمر، لا اتذكر منه سوى صور قديمة ومئات من

الحكايات التي كانت ترويها والدتي عنه.. فلسفته، طموحه، إيمانه الطاغي على كل تفاصيل الحياة.. كانت تقيم صرحا لوجوده في مخيلتي فكأنني عشت معه... عرفته.. لمسته.. لكأن ذاكرتي مشبعة برائحته.. كم كنت احب ان أرى عينها وهي تتحدث عنه.. كانتا تشعان شوقا وحنين يشوبهما حزن الافتقاد..

نذرت نفسها لي انا.. وكأن حبها لكل مافي الكون تجمع لينصب عندي.. احضانها الدافئة تذيب مشاكلي التي كنت اظنها عظمى، فتختفي.. لم تكن ككل الامهات.. كانت تستمع لي وكأنني راشده قادرة على ادارة الكون.. تغمرني بالحنان كطفل رضيع.. وتناقشني باهتماماتي وكأنها احداث عظمى تحاكي التاريخ... لم أرث منها إلا سواد الشعر وبشرة بلون الحنطة، ومحبتها للحكايات الخرافية والأساطير ولكل ما كان يمت بصلة للمستحيل.. كانت تكدسها بعيداً عن الواقع وتسكبها فوق مخيلتي.. علي أمارس الطفولة للأبد.. بل لعل براءتي تتناسخ للأبد.

تحدياتها وقوتها كانت تبهرني، تمدني بتيار من الجرأة لأمارس طقوس السعادة التي يتحاشى الجميع اعلانها على ارض الخليج، وكأنهم أدمنوا حالات الحزن وممارسة الغموض بجاذبيته الخادعة، يتوهمون بأن الدموع والأشواك هي الطريق الصحيح لبلوغ أدنى درجات السعادة من الابتسامة والرضا.. والحب!!

كنا نعيش بجوار خالتي وعائلتها مع جدي الذي انتقل للسكن معنا بعد وفاة والدي.. في منزلين متجاورين، كانا هدية جدي لابنتيه، رصيد العمر الذي يضمن راحة البال له، والإستقرار لهما، كي لايجتمع القدر والمسافة للتفريق بينهما.. يستنشقان الهواء نفسه، في الشارع نفسه، ويلعب أطفالهما في الحديقة نفسها.. لم يكن يعلم ان القدر لم

يستطع تفريقهما، بل اخذهما معا في يوم واحد.. يومٌ كان فيه نهاية طفولتي واحلامي.. وتلقيت فيه صفعتي الاولى ووجعى الاكبر..

كانت خالتي تعاني من حالات من الصرع تهاجمها بين فترة واخرى.. وفي ذلك اليوم لم يكن زوجها، خالي احمد موجودا.. ولا ابنيها جاسم وكريم.. اتذكر تفاصيله بوجع يقتحم ذاكرتي المفعمة به.. يخترق كبدي.. ويمارس في عنجهية تأثيث حزني..

أتذكر تماما كيف زلزل بيتنا بصوت ابنة خالتي حنان، كانت تصرخ في لوعة.. مكبلة بالخوف.. مجتاحة بالذعر..

- خاااالتى الحقيني.. الحقي أمي.. أمي.....

ركضت أمي عبر حديقتنا المشتركة.. واقتحمت منزل شقيقتها لتجدها مرمية على الارض، متصلبة الاطراف، والزبد يخرج من فمها، وبدأت في تلك اللحظة باصدار الاوامر فورا..

- حنان احضري منشفه صغيره وعباءة والدتك الأن.. وأنت يا مريم أذهبي للأتصال بالسائق ثم اجلبي عباءتي معك...

نفذنا أنا وحنان مهماتنا كجنود خانعين لقائدهم دون تردد أو حتى تفكير.. وضعت المنشفة في فم خالتي وألبستها عباءتها وهي تتكلم وتلقي الاوامر، لم تحاول منع حنان من مرافقتها لأنها تعرف اهمية وجودها بجانب والدتها التي تعاونا على حملها للسيارة.. وقفت اتأملهم يبتعدون.. وأنا ادعو الله ان يحفظهم.. وينجي خالتي من تتابع هذه النوبات.. ثم انطلقت لتنفيذ مهمتي.. ففي الحياة يمكن تأجيل الحزن لوقت لاحق.. والبكاء ايضا في وقت لاحق.. ولكن مهمات والدتى كالأوامر العسكرية.. تتعرض للمحاكمة لو اضعت ثوانيها.. اتصلت بجدي ثم بخالي احمد لاخبرهما بما حدث في محاولة فاشلة لإخفاء حالة

الانفعال والخوف التي انتابتني... ثم اتصلت بمنزل جاسم.. أجابتني زوجته ثريا فوصفت لها الوضع لتنتقل لها مهمة التبليغ.. لم أستطع الوصول لكريم.. فهو في الجامعة الأن وهاتفه مغلق.. اتذكر أنني سمعت أذان المغرب في تلك الساعة.. فلم يكن امامي سوى سجادتي.. والدعاء..

مرت ساعات طويله جدا... وكأن دهرا كاملا مرعلي وأنا في انتظار.. وكأن تلك الحاسة التي تأتي بعد الخامسة قد بدأت تمارس وظيفتها بين ثنايا ذلك الهوس الجاثم بصدري.. تأخروا جدا.. لم يتصلوا حتى.. أيكون وضع خالتي خطيرا.. أتكون امي تبكي.. أتكون أمي بخير؟؟.. سمعت سيارة قادمة.. كالنجدة سحبتني من قعر الهواجس... فقفزت للنافذة اتأكد من القادم.. لم يكون سوى كريم.. وضعت علي مشمري [1] وذهبت اليه على أمل..

- كريم.. كريم..

التفت الي مستغربا: نعم.. مابك؟؟ ولماذا تبكين؟؟

- ألم تعلم... لقد اصيبت خالتي بنوبة.. فأخذتها أمي وحنان الى المستشفى مع السائق.. و لم يصلني خبر عنهم للأن..

بنبرة قلقه سألني: متى كان ذلك؟؟

- كان عصرا قبل أذان المغرب بقليل..

نظر الى ساعته: انها الـ 11 والنصف.. ماذاعن أبي والبقيه.. مؤكد أنهم معها الأن..

- بالطبع.. ولكني انتظر ان يتصل احد على الأقل ويطمئنني..

اخذ كريم يتنفس بعمق محاولة منه لضبط اعصابه والتحكم

1 المشمر: قطعه من القماش ترتديها النساء في المنزل للتستر من الاقارب غير المحارم.

بخوفه.. فهو يطمح لا ليكون طبيباً عاديا بل جراحا للأعصاب.. لم يكن يرضى ان يكون بسيطا بأي شيء.. بل مذهلا في كل شيء.. كاسراً كل الحدود ليحصل على مايريد ويحلم.. يبهرني فيه هذا الحلم الامحدود.. والثقة اللامتناهية.. على عكس جاسم الذي كان قانعا بوظيفته كمحاسب وسعيدا بزواجه من ثريا وأبوته المولودة عبر دمائها..

كان كريم مشغولاً جدا بتجهيز اوراقه للدراسة في بريطانيا.. هذا كان حدثنا الاكبر.. فخرنا الاكبر.. فقد كانت خالتي تباهي النسوة فيه.. متنكرةً بالعظمة خلف صحتها المتعبة.. وثقافتها المحدودة.. وقلبها الكبير.. ولكن أتانا فجأة وعلى غفلة منا خبر أكبر وقعا.. وأكثر صدمه..

دخل جاسم بسيارته في وسط انتظارنا.. ترجل منها وتوجه الينا على مهل شديد.. وكأنه كان يؤجل واجباً.. أو خبراً مخيف.. لم اسأله شيئاً.. و لم يتكلم.. ظللنا ننظر لبعضنا في حيرة وقلق الى ان قال كريم.. "طمأنا.. كيف هي الوالدة ولما هذا التأخير؟؟؟"

وكأن عقدة اصابت لسان جاسم.. لم يستطع الكلام.. حتى التنفس كان يبدوا صعباً عليه في تلك اللحظة..

صرخ كريم مستنفذا مابقي له من صبر..

- هل أصاب أمي شيء.. تكلم..

قال جاسم وهو يتبادل النظرات في مابيني وبين أخيه..

- يرحمها الله..

شهقة خرجت مني.. ورفض كان من كريم..

- ما الذي تقوله.. أمي كانت تتناول أدويتها بانتظام.. ومهما كانت النوبة قوية فانها تستطيع مواجهتها.. لا يمكن أن

تكـــ...

قاطعه جاسم.. قاتلا أي بصـــيص للأمـــل.. مكمـــلا أخبـــاره المفجعة..

- أمي لم تمت بسبب النوبة.. لقد اصيبوا بحادث في الطـــرق وتوفيت أمي... وخالتي..

لم تحملني قدماي من هول الصدمة.. فسقطت على ركبتي وانـــا احاول استيعاب هذه القنبلة التي فجرها جاسم على قلوبنا... كلنا كنا نفتخر بأن لنا من الأمهات اثنتين.. فكيف نعيش بدون أي منهما.. في صمت وعناد نظرت لجاسم.. اطالبه بالاعتراف والتراجع عـــن هـــذه الكذبة الكبرى.. فنحن لسنا في ابريل.. ولسنا ممن يحتفلون بالخـــداع والكذب في سبيل المزاح.. غير اني لم أجـــد غـــير الـــدموع المرقعـــة بالنشيج.. لم تكن كذبه.. لم تكن.. كذبه...

2

مرت ايامنا التالية كالصقيع.. وكأن جدران البيت تئن في وسط العزاء... لكم هي عجيبة قدرة الحزن على التضاعف في كل صورة تجتاح الذاكره.. كان لهذا الموت رائحة تنبعث في كل زاوية من زوايا البيت.. تثير الحزن فينا.. حد الذهول... نعم هذه كانت حالتي.. بكاء صامت موشومٌ بالذهول.. شيء ما قد كسر وتحطم وتناثر الى أشلاء.. ومع ذلك انتهى الليل وتجرأت الشمس على الأشراق، ولد نهار آخر، وذهب الناس إلى أعمالهم، وأطفال الجيران إلى مدارسهم، حتى القطة من نافذتي وجدتها تقفز من سور لسور.. كيف ذلك.. الم يعلم الكون كله أن امي قد غرقت في غياهب النسيان.. كيف لهم بهذه السرعة التنفس من جديد.. والحياة من جديد.. فكأن شيئا لم يكن.. وكأن حزني لم يكن.. وكأن أمي لم تكن.. أنسوها بتلك السرعة ياترى؟؟!.. وأنا كيف أعيد الوقوف مجددا وقد نسيت قدماي معنى الثبات؟؟! كيف أتنفس مجددا وقد نسيت رئتاي طعم الهواء؟؟! كيف اصغي، كيف اهذي، كيف اذهب، كيف آتي!؟ كيف لي أن اتكلم مجددا؟؟ وأية ابجدية قد تشرح لي.. غياب أمي.. وثكلي بها؟!!

كانت حنان في تلك الايام بالمستشفى بسبب الكسور التي اصابتها.. بالإضافة لحالة الانهيار النفسية التي سببها بقائها هي على قيد الحياة... وجدي كان معها لاصابته بهبوط حاد في الضغط.. فقد فقد ابنتاه.. أما السائق فأصيب بكسر في الذراع فقط، لم اكن اعلم وقتها

عن السائق الاخر ولكنني علمت أنه شاب في مقتبل العمر يعمل كسائق لباص صغير.. يكسب رزقه من وراء قضاء المشاوير الخاصة بالأخرين.. فـ ليرحمه الله فقد قتلته السرعة وقتلت الأخرين..

أتذكر رغبة ملحة في النوم هاجمتني في تلك الايام.. رغبة خالصة بالغرق وسط عتمة باهرة من السكينة والهدوء.. حيث لامكان فيها للذاكرة كي تمارس ساديتها علي.. حيث لاتستطيع مهاجمتي.. بصورة أمي.. ورائحة أمي.. وأحضان أمي..

لكن الواجب كان يناديني.. ووجودي هناك.. في مراسم العزاء كان حقها علي.. وكم كانت ثقيلة أيام العزاء.. وجوه تأتي ووجوه تذهب.. كلها تمد يدها في محاولة سريعة للمواساة.. وكلها تتمتم بجملة واحده.. عظم الله لكم الاجر.. وسط هذه المراسم كانت مصيبة الزهراء تواسيني وتؤلمني.. تسحب من عيني العبرة.. وتضمد في القلب جرح الأشتياق.. فلم يكن موت أمي مايؤلمني رغم فضاعته.. فهذه اقدار كتبها رب العالمين.. ولكن أشتياقي لها هو ما كان لغماً نشطا يسكنني.. فـ تبعثرني ذاكرتي المترفة بها.. وتأسرني رائحتها العالقة بحواسي..

كنت هناك وسط الجمع الغفير من المعزين.. ولم أكن.. فراغ سحيق العمق هو ماكنت اشعر به وسط الذهول..

ومضت هذه الايام.. وسكنت وحدي في بيتنا المنكوب بفقد أمي.. لم اتنبه يوما لقدرتها على ملء كل الغرف والاركان... وكأن الزوايا كلها ماتت بفقدها.. لم استطع لمس اغراضها او الدخول لغرفتها.. فلم اكن أعرف ماذا يفعل الانسان بأغراض الفقيد.. كم شعرت بنفسي كطفلة وحيدة لاتجيد الا الإتكال على صدر والدتها.. رغبة النوم تجتاحني مجددا.. لولا رنين الهاتف...

ورغم ثقل مهمة الرد الا انه لابد من تنفيذها.. رفعت السماعة..

.. ألووو... أه.. اهلا خالي أحمد.. كيف حالك؟؟

أحمد: الحمد لله.. طمنيني عليك ياابنتي.. استميحك عذرا فقد انشغلت بالعزاء وحنان..

- لاتقلق بشأني.. ما اخبار حنان... وجدي؟؟
- انهما افضل.. ولكنهما مثلنا جميعا غير قادرين على التصديق.. مريم هلا اتيت الأن اريد التحدث معك..
- ولكنها العاشرة.. أليس الوقت متاخرا..
- أفضل أن تأتي الأن.. دقائق يابنتي إلا إذا كنتي متعبه..
- لا بأس ياخالي.. أنا قادمه الى اللقاء..

أحسست بضيق لا معنى له وهواجس لا أساس لها.. ما الشي المهم الذي يريدني من اجله الأن وفي هذه الساعة المتأخره.. لم اشغل نفسي بالتفكير كثيرا.. لبست مشمري وقلقي وهواجسي وألمي الغر الذي لم يصبه العدم.. وذهبت..

دخلت المنزل وأنا اتذكر كيف اصبحت أنادي زوج خالتي بخالي.. لم تكن بحكم العادة ابداً.. بعد وفاة أبي.. لم أكن أعي معنى غيابه وموته فكنت أبحث عنه وابكي.. أجلسني خالي أحمد بجانبه في الحديقه وشرح لي ببساطة أن الله أختار له يوما وأن لكل منا يوم سيأتي.. وطلب مني مناداته بخالي لان الخال والد.. وهو منذ تلك الساعة تحول بالفعل لوالد لي وشقيق لوالدتي والأبن الصالح للجد الحبيب.. لم أشعر ابدا بالفرق بيني وبين حنان في طلباتنا الطفولية البريئة..

ما أن دخلت حتى وجدت خالي بانتظاري مع كوبين من القهوة لنا.. ابتسم لي في محاولة لكسر حواجز الالم التي تسكننا معا..

جلست.. وشربت.. وانتظرت منه البدء بالكلام.. لقد صح ظني الأمر مهم..

- مريم تعلمين جيدا أن الدراسة ستبدأ بعد 3 أسابيع وأنا اريد منك التركيز بجدية.. لابد أن تحصلي على الشهادة بتفوق... كما كانت رغبة والدتك...
- لا تقلق خالي.. تعلم جيدا أني اقوى من أن أضيع ماكافحت أمي لأجله.. دراستي هي واجبي تجاه نفسي وتجاهها... كانت تقول ذلك دائما..
- اعرف تماما كم أنت عاقلة وناضجه.. لذلك سأفتح معك موضوعا لابد لك من التفكير فيه بجدية قبل بداية الدراسة..

سكت قليلا وكانه يستجمع انفاسه.. وشجاعته.. لتفجير قنبلته..

- اريد منك الزواج بكريم..

فتحت عيني بدهشة كبرى.. لم اتوقع ابدا هكذا طلب.. والأن.. قبل ان تتم والدتينا لياليهما الاربعين..

- لاداعي للتفكير قبل أن تعرفي دواعي طلبي.. وهذه رغبة جدك ايضا فقد كلفني بنقلها لك...
- خالي.. أرجوك.. لا اظن انه الوقت الملائم لطلب كهذا... والدتينا لم يكـ...

قاطعني خالي: مريم.. التوقيت ليس هو المشكلة...

هذا التقسيط المربك في إلقاء القنابل أضاعني.. ماذا ايضا؟؟؟

- نحن نخشى عليك من عائلة والدك..

أبي.. عائلته.. أنا لدي عائلة من طرف أبي، ولماذا لم تخبرني أمي، لماذا هذه القطيعة، ولماذا الخوف اصلا، أخذت اتنفس بعمق وهدوء لاستجماع طاقتي على الاستيعاب.. ونظرت لخالي اطالبه بالايضاح..

- اسمعي يابنتي.. كان هناك مشكلة كبيرة بسببها طرد جدك والدك من بيته وحياته.. حتى انه هدده بقتله اذا رأه مـــرة أخرى دون أن يرجع عن اختياره..
- وما كانت المشكلة...

وضع فنجان القوة من يده وكان ما سينطق به هو الاهم..

- لقد غير والدك مذهبه...

من بين مئات الاسباب التي خطرت ببالي في تلك اللحظات.. ابدا لم يخطر ببالي أن يكون السبب طائفياً..

وسط انفاسي المنقطعة وعيناي المشرعتان بالدهشه.. أكمل خالي حكاية.. والدي..

- كان والدك متفتحا لاستقبال الافكار والتأمل بهـــا مهمـــا بلغت غرابتها... فكانت له صداقات كثيره ومنها كان مع شباب من القطيف.. جره فضوله ورغبته في فهم هذا العالم في عناده وقوته رغم الاضطهاد الذي يتعرض له احيانـــا... فكانت له زيارات عده للمأتم والمحاضرات التى كان يسمع عنها الكثير من الخرافات والبدع.. وكـــان جـــدك إمـــام المسجد الذي احتضنه وعلمه تعاليم مذهبنا.. كان ذنـــب والدك انه فكر وتأمل وأختار بنفسه الطريق الـــذي يريـــده هو.. لا الذي رُسم له.. وما أن أعلن تشيعه حتى بـــدأت حملة التعذيب من قبل عائلته فقد كانوا من المتعصبين نوعـــا ما.. وانتهت بالطرد.. فلجاء لجدك.. وتولى القدر تسلسل الاحداث الذي كتب فيها لوالديك الزواج.. وقبـــل فتـــرة اتفقت والدتك وخالتك رحمهمـــا الله علـــى زواجكمـــا، احتياطا في حالة حدوث اي طارىء... كما حـــدث الأن

وهذه ارادة الله فلا اعتراض.. ولكن الدنيا لا أمـــان لهـــا.. بالاضافة لاننا لا نريد ان يدق الباب احد مـــن عائلتـــك ليأخذك بعيدا عنا رغم أرادتك.. ولا اتصورك قادرة علـــى العيش معهم.. أختياراتك في هذه الساعة ستكون معدومـــة ولن يكون امامك سوى السمع والطاعة كما نسمع جميعا بحكايات القبائل لديهم.. أما اذا تزوجتي كريم.. سأضـــمن لك ان تكملي دراستك.. وتعيشي وفق اختياراتك..

مابين المذاهب والزواج.. ضعت أنا.. لم أعد اعرف حتى كيـــف أتنفس.. أكمل خالي في محاولة لإقناعي...

- لقد اتفقت والدتيكما على ذلك منذ أشـــهر.. حـــتى إن خالتك قد فاتحت كريم بالموضوع..
- ماذا؟؟
- ليكن زواجا رسميا على الأوراق الأن لنتممـــه مـــتى مـــا أحببتما.. مجرد توقيع يضمن لنا مجابهة أي مشكلة مســـتقبلا في حال فكروا في الهجوم...

أهي حرب إذا.. دون معرفتهم.. دون رؤيتهم.. حكمنا علـــيهم بالعداوة فقط لانهم في الجبهة الاخرى.. أليست هذه اختياراتهم ايضا.. نطالب بالاحترام.. فلم لا نعطيه؟؟..

- وماذا عن كريم؟؟ لا أظنه يستـــ...
- انه موافق...
- لااصدق.. كريم موافق..
- مادام الامر لا يحمله مسؤوليات الأن.. فلا مانع لديه.. لقد شرحنا له الاسباب.. كما وانها رغبة امـــك رحمهـــا الله.. كانت تحاول التأجيل الى ما قبل سفر كريم، وكنا قد اتفقنا

جميعا على زواجكما في حال اقتـــرب اي منـــهم كحـــل سريع.. والأن المسألة بين يديك.. كل ما نفعله هو خوف عليك لا اكثر.. وأنت تعرفين..

نعم أعرف.. ولكن زواج ومذهب وأبـــي ورغبة أمي.. وكـــأن خالي تعمد أسقائي القهوة كي لا أنام.. كي أفكر.. كي أعيش دوامة من الطرق التي اصبحت فجأة تؤدي الى كريم.. فـــ كل ماحدث كان كـــ فلم عربـــي قديم.. نعم هذه الحبكة الغريبة التي وقعت وســـطها تنفع كفـــيلم لا كواقـــع... كحكايـــة لا كقـــدر... ككـــابوس لا كمستقبل...

لم تستطع القهوة الثبات امام سلطان النوم الماثـــل لأوامـــري.. المهرب الجميل من كل الافكار التي لن تهرب.. ستضل جاثمـــة علـــى أطراف الوعي.. تنتظر مني الاستيقاظ حتى تهاجم من جديد.. كل مـــا اريده الان هو ساعات من الانفصال المؤقت عن كل مايدور بحيـــاتي.. فقط أنا والوسادة والاحلام... وربما عيني كريم...

3

كنت هناك.. في تلك الهاوية الامنة من السكون سابحة في العدم.. شعور بـــ الا شيء كان ينتابني.. يثير في نفسي مزيدا من الانسياب.. فأغرق أكثر.. أبحر أكثر.. هناك حيث أكون.. تنعدم الجاذبية وتنعـــدم معها جميع قوانين الحياة.. فقط أنا والسكون..

أستيقظت على قرع خفيف على الباب الذي أطل جـــدي مـــن وراءه....

- صباح الخير..
- صباح النور جدي... خرجت من المستشـــفى مجـــددا ألم يأمرك الطبيب بالراحة؟؟

جلس بجانبـــي على الفراش وهو يحتضنني بكل ما أمكنه من حنان..

- ماذا... أكنتِ تريدينني ألا أحضر عزاء ابنتاي.. أما كنـــتِ تريدين لمصيبة أبـــي عبد الله أن تخفف مـــن مصـــيبتي.. أم أنك لا تريدين وجودي وأنـــت الأن تعـــرفين الحقيقـــة.. أعذريني.. طلبت من أحمد البارحه أن يخبرك بها.. فلا طاقة لي برؤية اللوم بعينيك..
- حاش لله ياجدي أن الومك.. أو الوم أي شخص في هذه الحكايه.. كل منا له خيارات.. ولكن الصدمة من الواقع كانت أكـــبر مـــن أن أصـــدقها او ادركهـــا بتلـــك السهولة.....

أخذ نظرة سريعة للسرير ثم وضع يده على شعري كعادته رغم أني شعرت بها اليوم كمسحة على رأس يتيم..

- نمت سريعا صحيح.. أعرفك حين تهربين من المشاكل تبحثين دوما عن وساده..

ابتسمت له فهو يعرفني.. يحفظني.. كل مامر بحياتي مسجل في ذاكرته.. ورغم ما كان يدور ببالي من اسئلة واستفسارات الا انني لم أجد السؤال الذي يكون تذكرتي للدخول في ساحة الحديث.. لا ليس الان.. كان عليَ التقاط المزيد من الانفاس.. بل التقاط نفسي وتلحيم ذاكرتي المهشمة.. فما كنت أره لم يكن الا نصف الحقيقة.. وما عشته كان نصف الحياة.. وما عاشرته كان نصف عائله..

هناك.. لا اعلم اين.. يكمن النصف الاخر من عائلتي التي لا اعرف.. بالفعل لا اعرف أعلي ان احبهم ام لا؟؟ أأشتاقهم أم لا؟؟ أأخافهم أم لا؟؟.. جزء لم أكن أظنني أطمح بمعرفته أو حتى التفكير فيه.. جزء كانت أمي تخاف منه.. لدرجة أنها وضعت خطة احتياطية للدفاع السريع... ما كانت لتطلب ذلك لولا خوفها علي فعلا.. دوما كانت تخبرني عن اهمية التفكير بخياراتنا المتاحة قبل اتخاذ القرار.. وأن قراراتنا.. لنا.. لحياتنا.. لسعادتنا.. لقناعاتنا.. لذا فليحكم بها ضميرنا.. أكنتي تعطينني هذه الدروس ممهدةً كي أستعد لحياتي المعقدة أم لـ..

- مريم.. اين ذهبتي؟؟
- أنا هنا.. أين سأذهب..
- أسمعي يابنتي.. أعلم كم هو صعب عليك.. ولكني أخاف أن يختار الله أمانته قبـ..
- لا تقل ذلك ياجدي.. فليحفظك الله لنا..

- هذي مشيئة رب العالمين والموت ليس له مفر يا بـــنتي... ولكني أريد أن أطمئن عليك.. أنتي لم تري حالة والـــدك يوم أتى مطرودا... انكتب له عمـــر جديـــد.. لكـــأنهم استباحوا دمه وقطعوه ضربا لولا وقوف جدتك لهم لكان ميتا...
- كلمني عنهم.. ماذا تعرف عنهم؟؟
- لاأعرف عنهم الكثير.. لك عدة اعمام وعمـــة واحـــدة.. والكثير من ابناء وبنات العمومة.. وجدة ايضا اما جـــدك فقد قرأت خبر نعيه قبل سنتين بالجريدة...
- لدي اذا عائلة كبيرة جدا لا اعرفهـــا.. مـــابين حكايـــات والدي وبين مذهبه.. استفهام كبير.. كيف استطاعت امي اخفاء ذلك عني...
- مريم.. تعرفين تماما صعوبة الامر.. ربما بعد عدة ســـنوات تتعرفين بهم.. تزورينهم وتصلين بهم الرحم.. ولكـــن الأن أخشى عليك منهم كخشية امك تمامـــا.. اخشـــى علـــى حريتك.. دراستك.. مستقبلك.. كل ما اطلبـــه أن تـــبني حياتك أولا وتؤسسي الدعامة الـــتي تســـتندي عليهـــا في مواجهة أي طارئ قد يصيبك... أكراما لي يابنتي.. إكراما لروح والدتك ورغبتها...
- جدي ليس الامر سهلا علي.. أن افرض نفسي هكذا على كريم.. كلنا نعلم ان دراسته هي الرقم واحد في حياتـــه.. وهو لايقبل بأي شيء يعيقه..
- حسنا... لقد طلب مني كريم الإذن بمحادثتك وحدكما.. كي تتفاهما في الموضوع بحرية مطلقه.. وتقررا.. دون ضغط

من احد.. سأخبره ان ينتظرك في الحديقة بعد ساعه.. حسنا...

هززت رأسي بالموافقة لعيني جدي الممتلئة بـ اللوعة والايمان.. تركني وخرج.. وهو لايعلم ان لساني قد شلته تلك البراكين المتفجرة اسفل جلدي.. انا وكريم.. كريم.. حلمي الاول.. الذي لم يعلم.. انفاسي الاولي.. التي قطعتها قبل ان تروى.. خوفا من لوثة أمل.. او ألم...

هم لايعلمون انني حين كنت احلم.. كان حلمي هو انت.. وحين ابحث كانت عيناي لا تجد غيرك.. ليالٍ اترقب عند نافذتي رجوعك.. أتأملك دون أن تشعر.. دون أن يشعر احد آخر غيري.. كان قربنا يبعدك عني.. وطموحك في البعد يأد الانوثة المطمورة على عتبة الحب الأولى.. في بداية دربي...

لبست سوادي.. وسواداً على سوادي.. فهكذا حزننا طقوسه تمتليء بالسواد.. وتوجهت للحديقة حيث هناك كان كريم ينتظر..

لا تفكري.. لاتشعري.. لا تتأملي.. لا تتألمي... فقط انتظري منه الخطوة الأولى..

شبه ابتسامة وشبه تحية ماكان بيننا... ثم جلسنا.. وابتدأ هو مجداف الكلام..

- مريم.. فلنترك الشكليات جانبا.. نحن تربينا معا.. وأنت غالية علي.. كحنان تماما.. فلا داعي للحرج بيننا..

شيء ما هنا قد ارتطم بصدري.. أكان صدى صوتك المدوي في أعماقي والذي شبهني بشقيقتك.. ام حطام لـ أحلام مُراهقةٍ تعيش على بعد حديقة منك.. بعين لامعة وحاجب مرفوع.. كنت تكمل...

- انت تعلمين انني سأسافر خلال ايام.. ووجود هذه الورقة بيننا لاتغير شيئا.. الحقيقة ان أمي اخبرتني منذ مدة بالموضوع وأنا رفضت شاعرا انهم اعطوا الموضوع اكبر من حجمه.. كما وأن الزواج لايتم بهذا الشكل.. ولكن تعرفين الام وخوفها.. الان أنا موافق بالطبع.. اكراما لوالدتينا.. واكراما لجدنا.. مجرد ورقة تتيح للجميع الشعور بالراحة والتخلص من الخوف المسيطر عليهم من المجهول.. وخلال هذه الاعوام متى ما احببتي.. انفصلنا.. لا توجد اي مشكلة عندي.. اخبرك هذا الان لأنني سأنشغل بالماجستير والدكتوراه خلال الاعوام المقبلة.. ولن اسمح لشيء ان يشغلني غير دراستي.. وانت ايضا يجب عليك ان تعملي بالمثل وليكن تفكيرنا عملياً..

بكل اقنعة الكرامة التي اعرف... ارتديت... وقتلت مابقى من شوق عقيم..

- نعم.. كلامك صحيح.. علينا الاهتمام بمستقبلنا.. لا شيء سيحقق لنا الثبات على هذه الارض سوى ما نتعلم وندرك..
- اذاً انت موافقه؟؟!

رتابة اسلوبك اشعرتني بأنني في احدى عملياتك الجراحية... أكنت تريد مني ان اتصنع المثالية وأرفض ياترى؟؟ أكنت العقبة الاولى التي جعلوك تتعثر بها رغم ارادتك؟؟؟.. تهديد عباراتك بالقبول البارد.. ودفاعك عن شهاداتك التي تحلم، نظراتك الصفراء، واحساسك المصفوف في الثلاجة.. لا تتيح لي فرصة كي احلم بك كما كنت.. أو اطمح لعبورك كما اردت..

ما أنا بتلك المرأة التي ترمي بحفنة من الدقائق والايام على قارعة الزمن.. على أمل ان يقطع اميرها الف صدفة والف ميعاد حتى يحقق لها المستحيل.. ويحبها.. أبدا لست بـ امرأة الانتظار.. لست بامرأة التضحيات.. لست ممن يلقين بذرات الكرامة على عتبات الحب.. الحب الذي تشبعت منه حتى اقصى حدود الارتواء.. حتى اقصى حدود الاختفاء.. مدفونا هناك في اعمق بقعة من منفى الحلم..

ابوابي ليست مفتوحة.. ليست مواربه.. ابوابي محكمة الأغلاق.. تنتظر من يفتحها.. من يقتحمها.. ربما لست انت.. وربما انا من ارتكب هذه الغلطة المطبعية في تدوين ملامحك بدلا من المجهول... مجهولي الذي قد أبدأ في انتظاره.. حتى يخترق ابوابي، ونوافذي، وجدراني.. فـ يبعثرني.. وتتلاشى بوجوده ارضية كياني.. فأصل حتى اقصى درجات الحياة.. فقط لو أستطيع محوك.. فقط.. لو أستطيع أن أنساك..

- نعم.. موافقه.. لا املك امام اصرار الجميع.. وخوف الجميع.. ورغبة الجميع الا الموافقة.. ولا تقلق هذه الورقة لاتبني ولا تهدم.. سنوقعها وننساها الى ان نرى مايحصل.. اقدر موقفك.. وستضل ابن خالتي الذي احترم..

اعجبك التقدير.. وغياب الحب.. ام لعله اعجبك الصقيع القائم بيننا.. لكم سحقني برودة أسلوبك كبرودة عينيك، ومشرطك وكتبك.. عقلك مليء بالمشارط فمن انا كي اقف على عتبة بابك... انتهى لقائنا.. وانتهى حلمي بك في حين ارتبط اسمي باسمك.. كل ماذرفته كان حفنة من الدموع على مراهقي وسذاجتي الطفولية وأنا أواريك في اعمق حفرة من ذاكرتي.. أمام مرأتي وقفت وأهديت نفسي شبح ابتسامة.. لم يكن حبا يامريم كان وهما فقط...

حاولت مسح ملامحك من مخيلتي كي استعد لاســـتقبال ملامـــح جديدة قد تهديها لي الايام.. ولكن كيف للإنسان أن يبـــدأ هكـــذا.. منهاجاً جديدا.. وذاكرة جديدة.. ونبضا جديد.. كيف لقلبـــــي أن يتدرب على ترانيم جديدة لخفقانه.. كيف لهوائي أن يدشن برائحـــة لاتنطلق عبر مساماتك.. كيف لأحلامي أن تورق خيالا مخصـــبا دون أثر لعينيك..

زواجنا لم يكن يوما.. لم يكن مساء.. كل ماكان دقائق وشيخ.. ونعم... ثم وداع وسفر.. ونسيااان..

4

ابتدأ الفصل الجديد.. سنتي الاخيرة في الجامعة... ويـــومي الاول الذي تتجدد فيه تراتيل العزاء... سلام.. قبـــل.. تعظـــيم للاجـــر.. ونظرات شفقة وهمس.. أيام فقط ثم تمضي الشفقة في غياهب النسيان هي ايضاً.. فصبرا جميلا وبـــ الله المستعان...

ورغم قدرة الدراسة على الاستئثار بالوقت والبال لاغية محاولاتي البائسة في اجترار الذكريات.. إلا انها لم تكفي.. لم تكفيني أبدا تلـــك الكتب الدراسة للانفصال عن الواقع.. كان لابد لي ان اقـــرأ اكثـــر وانفصل اكثر.. فاعيش بعيدا عن واقعي اكثر من حياة واكثـــر مـــن حلم..

ولكن دوما هناك من يقرع بابـــي فيعيدني لأرضيتي.. وحياتي...

- مريووم..
- تفضلي

كانت حنان قد خرجت من المستشفى بعد بدء الدراسة بـــأكثر من اسبوع لتبدأ سنتها الجامعية الاولى... وهاهي تدرس معـــي كـــل يوم.. بل وتعيش معي تقريبا كل يوم.. وكأننا نستعين ببعضـــنا عمـــا فقدنا.. فكلتانا في الهم نفسه رغم انها تصغرني بـــ ثلاث ســـنوات... دخلت وهي تعرج قليلا فقد تخلصت منذ يومين فقط مـــن الجـــبس.. جلست على طرف السرير وشعرها الكستنائي الطويل يتدلى كالحبـــل فوقه.. وبدأت في سرد نشرتها العائلية..

- تعلمين البيت موحش جدا بعد سفر كريم.. لا احد غير أبي.. لقد اقتنع جاسم بالعودة والسكن معنا.. وسيقومون بتأجير منزلهم والاستفادة من المبلغ للمستقبل... ولا اعلم كيف ساعيش مع ثريا..
- لماذا تقولين ذلك.. ثريا طيبه وأظنها سعيدة بهذا القرار..
- اتوقعها من اقنع جاسم.. وكأني اراها تستلم مبلغ الايجار من هنا وتذكرة سفر لسويسرا من هناك....
- وما المشكلة بذلك... هل هو امر سيء ان يطمح الانسان للسفر والحياة بشكل افضل.. فلتعش حياتها كما تريد...
- كما تريد.. ام كما يسمح جيب جاسم بما تريد.. يكفي انه خسر اغلب امواله في أسواق الاسهم..
- حنان هذه ارزاق.. وجاسم قد تقبل الواقع وتعايش معه.. ثم انه لازال في مقتبل العمر ويستطيع ان يحصل على اكثر مما فقد...
- الجيد في الموضوع انك هنا فانا لا استطيع ان ابقى يوما كاملا تحت نفس السقف معها.. هي طيبة نعم.. ولكنها متعبة بعض الشيء.. لاتعرف متى تسكت.. فضولها يقتلها ان لم تعرف كل صغيرة وكبيرة في حياتك... وتظن ان رأيها لابد ان ينفذ لانه الافضل.. لاغية بقية الاراء...

كانت حنان تتكلم بانفعال واضح.. فالعلاقة بينها وبين زوجة اخيها لم تصل لأبعد من ذلك.. ربما لفارق السن بينهما.. او للمبالغات التي تتصورها حنان في رأسها عن ثريا.. فأنا لا اجدها تلك المرأة المتسلطة الوقحة التي تلغي اراء الاخرين.. وربما هذه ميزة من يقف بعيدا لينظر للصورة كاملة من جميع الزوايا... أجد حنان تغار رسميا من

ثريا لان خالتي من اليوم الاول في حياتها مع جاسم اعتبرتها ابنة جديدة لها مهددة بذلك مكانة حنان في الاهمية، وفي كونها ابنتها الصغرى المدللة والوحيده.. لعلها صفة مشتركة في البشرية.. فهذه الانانية الفطرية فينا لحب امهاتنا تتملكنا بالرغم منا.. غير مدركين لهذا الشراء العاطفي الفاحش الذي تمتلكه الام في صدرها ليس فقط لابنائها.. بل لكل مايمت بصلة لهم ايضا.. وهذا ماكانت عليه ثريا ايضا... كانت اماً.. لابنتين احداهما في السابعة والاخرى في الخامسة.. اما طفلها الاخير مؤيد فكان له تسعة اشهر من العمر فقط...

- اتعلمين حنان.. وجود ثريا والاطفال سيضيف لحياتنا لونا اخر.. خصوصا لجدي وخالي.. وأنت ايضا.. الا تلاحظين نظرتك السوداوية في كل شيء..
- اعلم... ولكن الحادث كان له هذا التأثير على نفسي.. رغم اني فقدت الوعي على الفور و لم اشعر بشيء.. الا ان ذلك اليوم قد حفر في نفسي عميقا..
- لا تقلقي كلنا معا سننجح في تجاوز هذا الحزن.. ووجود ثريا مع الاطفال سيكون كفيلاً بصنع ذلك النجاح...
- مريووم.. هل اصبحتي فجأة تشبهين خالتي.. ام انك هكذا وانا من انتبه الأن..

ابتسمت بغصة.. فأمي اصبحت تتغلغل عبر تفاصيلي.. وحروفي.. وكأن رأيها يقفز منسابا عبر مخيلتي.. عند كل خطوة وعند كل كلمه.. وجودها الطاغي بنفسي يمنحني مقدارا من الاتزان.. ويعينني على مواصلة الحياة...

ظل جهاز حنان يرسل التنبيهات بلاتوقف.. فقد كانت ناشطة فيسبوكيه.. كما كانت تطلق على نفسها.. بالاضافه لمواقع التواصل

المختلفه التي تشترك بها.. ربما كانت هذه طريقتها في مواجهة الالم.. وفي الانفصال المؤقت عن الواقع الذي امارسه بالقراءة.. كان هناك تنبيه مختلف الرنة جعل حواسها تتركز على الشاشة.. ماذا هناك ياترى.. في نظراتها ما كان يوحي بمقدمة للكذب.. فلم أجد لأسئلتي فائدة كي أقدمها لها..

لم اكن احب الخوض بخصوصياتها.. او الضياع بعالمها الإلكتروني.. إلا أن خوفي المشوب بالحب لها دفعني لمسايرة نشاطاتها.. فكان لعالمها الوهمي نقاط نلتقي بها اكثر.. وكان هناك "صمت" الصديق الذي لم اعرف...

كان لانتقال ثريا وجاسم فعله الايجابي في حياتنا.. كالإسمنت تماما يضيف لأقدامنا الثبات على هذه الرمال المتحركة التي نسير فوقها.. اتزانها وأمومتها أعادة البسمة للمنزل.. حتى حنان اصبحت اكثر سعادة بوجود الاطفال.. لولا ذلك الحاجز الذي اقامته في مخيلتها من تسلط غريمتها الأولى في حب والديها.. كانت تجد انتقاداتها لعباءتها المزخرفة ووجهها المكشوف تعدٍ على حريتها.. خروجها المتكرر وتأثرها الواضح بصديقاتها لم يكن طبيعيا في عائلة محافظة كعائلتنا... فكانت ثريا تواجهها بصبر.. وهذا ما كان بالنسبة لحنان حربا حامية الوطيس... اتذكر في احد الامسيات كيف نزلت حنان بعباءتها الملونة وعطرها النفاذ.. لتواجهها ثريا..

- الى اين في هذه الساعة؟؟؟
- اتفقت مع صديقاتي على الالتقاء بالكوفي شوب الجديد.. والاحتفال بعيد ميلاد اسماء هناك...
- وهل يعلم والدك بذلك؟؟؟
- نعم... اخبرته انني سأحضر عيد ميلاد اسماء الليلة...

- وهل اخبرته انه سيكون في الليل، مع بنات لوحدهن، بالكوفي شوب؟!!
- ارجوك ثريا لاداعي لهذه العقد الأن... جوالي بيدي متى ما احببتم الاطمئنان اتصلوا بي... لن افسد تخطيط الحفلة لان زوجة اخي تخاف خروجي في المساء...

هنا في القطيف.. يكافح الجيل الجديد لينال مقدارا لابأس به من الحرية، والتي كانت تريد حنان استنزاف اخر رمق متاح منها... فقد اصبحت حركة البنات اسهل بوجود السائق... بالإضافة للمراكز النسائية والنوادي والمجمعات العائلية التي تتيح لهم الذهاب للألتقاء فيها.. وكأنهم ينتقمون للأجيال السابقة عن حالة الكبت التي عاشوها.. ونقلوها لأبنائهم بصيغة أخرى ولكن بالمعنى نفسه..

نظرتُ لثريا أواسيها "لابأس ستستمتع قليلا وتعود لا ضرر بذلك".. الا انني وجدت الخوف بعينيها.. فحنان كانت امانة وضعها القدر على عنقها.. إلى أن اتى اليوم الذي فجر "صمت" هذا الخوف...

أتتني حنان في ذلك اليوم مندفعة يغلي الخوف من عينيها وهي تحتضن الكمبيوتر المحمول تصرخ بمأمن تام فجدي في هذه الساعة يكون في المسجد ولا احد أخر هنا ليسأل عن أسباب صراخها..

- هاقد ظهرت على حقيقتها... متجسسة لاتهتم بخصوصية احد..
- عن ماذا تتحدثين ومالذي جرى...

لم تستطع ان تكمل فقد كانت ثريا اسرع منها بالإجابة.. وهي تحكم اغلاق الباب..

- لا تتحججي بالخصوصية فقد طرقت الباب اكثر من مره.. ولكن السماعة بأذنيك منعتك من سماعي.. بل جعلتني اكتشف مقدار ماوصلتي إليه على غفلة منا...

كان التوتر اكبر من ان تواجهه بالهجوم.. فقد اكتشفنا علاقتها "بصمت".. اسم على لائحة اسماء صفحة الفيس بوك الخاصة بحنان.. لم نتصور يوما ان يكون لرجل..

- من هو هذا الصمت الذي رأيتك تتحدثين معه.. وتضربين له موعدا...
- انه رجل يريد أن يراني قبل ان يتقدم بشكل رسمي لخطبتي.. وهو يحبني منذ مدة ولكنني كنت اتجاهله..
- وهل تصدقين هذه الخزعبلات حقا... انت بالذات تعلمين انه عالم وهمي يتساوى فيه الصدق والكذب معا.. كيف تصدقينه.. كيف تتجرئين على التفكير بالالتقاء برجل لاتعرفينه من وراء ظهورنا.. الا تخافين على نفسك.. الا تخافين على سمعة والدك وعائلتك..
- نعم هذا هو الشيء الوحيد الذي تفكرون فيه سمعتكم ومكانتكم.. ماذا عن حريتي ومشاعري.. لا تعرفون عنها شيئا.. صمت كان الوحيد الذي اعطاني القوة بعد وفاة والدتي.. كان الوحيد الذي يواسيني ويُسمعني عبارات الحب والحنان..
- وماهو اسم هذا الصمت الذي تحبين...
- لا اعرف.. قال انه سيخبرني به عندما تلتقي اعيننا ببعض..

لم ارى ثريا تنفعل هكذا من قبل... و لم ارى حنان خجلة هكذا من قبل.. ورغم خجلها كانت تدافع عن حقها في حب الوهم...

- ستخبرين جاسم بهذا اليس كذلك؟؟؟
- وهل هذا هو اقصى همك.. من سيعرف.. الا تعرفين أن اي امر يتم بالخفاء يدل على خطئه.. لا.. لن اخبر احداً.. ولكنني سأثبت لك كذب هذا الصمت الذي تحبين..
- مستحيل.. إنه يحبني...
- اولا ستخبرينه انني لم اسمح لك بالذهاب واننا تشاجرنا.. فلم تستطيعي الخروج... ثم..

التفتت لي حينها واكملت.. مريم.. قومي بتشغيل جهاز الكمبيوتر الخاص بك..

فعلت ذلك وانا اتخيل ماستفعله.. واتابعه.. فالسمعة هنا هي رأس المال الوحيد.. الذي يجب ان لايخدش.. في ثوان وعلى رقابة من حنان كان هناك ايميل جديد.. وصفحة فيس بوك جديده.. اضافت فيها ثريا جميع الاصدقاء الخاصين بحنان... بالإضافة لصمت..

- سنرى ماذا يخفيه هذا الصمت.. وان كان صادقا فليدخل البيت من الباب...

لا اعلم ان كان موقف حنان هو خوف عائلي ام حذر انثوي ولاكنها وافقت ثريا.. في ظل تكتمها عن البوح بسرها...

وفي المساء كان لنا لقاء اخر.. كلا الجهازين.. جهازي الثابت وجهازها المحمول كان مفتوحا ومشرعا للبدء بالمعركة الاكترونية.. في خانة الدردشه كانت حنان تصف الشجار المفتعل.. والحسرة على الموعد الملغي بينهما.. وهو كان يواسي بكلمات الحب والشجن.. كيف لاتهيم الفتاة بهكذا كلمات.. كيف تتمكن من مجابهتها باللامبالاة وهي تصدع في داخلها بالانوثة والاشتياق.. وبعد دقائق فقط طلبت مني ثريا الكتابة ايضا في نفس الخانة بجهازي... لصمت..

- عفوا.. يبدوا انني قد اضفتكِ بالخطأ.. لم اعرفكِ.. من معي؟؟

اتاني الرد على الفور...

- انتي التي من؟؟ انتي من اضفتني!!

باتباع كلمات ثريا وتوجيهاتها اجبت والخوف يتملك اصابعي.. فيبدو ان الاطراف تعي مقدار الخطأ الذي نرتكبه مهما كانت غايته...

- لقد وقعت صفحتي بيد هكر قبل فتره.. ولهذا عملت اشتراكا جديدا.. واضفت قائمة صديقاتي جميعا.. ولكني لم اعرفكِ... من معي...
- انا صمت..
- من صمت؟؟؟
- فقط صمت... بدون من..
- حسنا.. وانا وجود...

وبدأنا حوارا قطع به حواره مع حنان.. والدهشة تتملكها من جميع الزوايا.. بكل بساطه قال لها الى اللقاء.. فقد اشغله وهم جديد في عالم الاوهام المتجدد..

جَلست حنان أمام جهازي لتتحدث معه بالاسم الجديد.. وعلى مدى ثلاث ليالٍ متواصلة ليعيد لها اسطوانته القديمة عن اسمه الذي لا يُذكر الا في حضرة العيون.. كان درسها الاول الذي تلقته على عتبات الحب.. كل تلك الاشهر من الحلم ضاعت بكلمات بسيطة.. لم تكن تحبه قطعا.. كانت تحب حالة الحب الذي وقعت في بركته فشكلته امامها كرجل الاحلام الذي يحمل من الصفات ماكانت تحب وتهوى، و لم يتعدى كونه حلما بالفعل.. بكت في احضاني على حبها المبتور.. ترى الكذب بين سطور عاشق ادمن سرقة الكتاب والشعراء ليصيب ضحيته بالدوار..

- كان درسا مجانيا قدمته لي الحيـــاة.. إن الثقـــة تكتســـب لاتمنح.. والغريب كاذب حتى يتبين صدقه..
- مضت الايام.. وعلاقة حنان وثريا تـــزداد قربـــا وقـــوة.. فكانت حنان تصب طاقتها الزائدة من الحب علـــى مؤيـــد الصغير الذي اصبح رسميا لايأكل الا من يدها.. وتخرجـــتُ اخيرا من الجامعة.. لأواجه واقعي الجديد كعاطلة عن العمل تلج أحراش الوظائف وتطرق أبوابها.. أبـــواب ذات قفـــل مزدوج.. ذات جرس صامت.. وذات عتبة لاتقول مرحبا..
- يتبعثر حلم الوظيفة شيئا فشيئا كلمـــا مـــرت الأشـــهر.. ليفاجأني اقتراح حنان...

لماذا لاتذهبين للدراسة في لندن..

- كان اقتراحها كالكارثة الواقعة على حواســـي... فـــرغم ماكان له من ايجابية لطموحي ومستقبلي.. كان له مقـــدار من الرعب المتمثل بعيني كريم.. كل مابيني وبينه مجرد ورقة كان واضحا انني يجب ألا اتخطاها... فكيف لي ان افـــرض عليه وجودي كما فرض عليه اسمي..
- لايمكن.. انه صعب جدا... الغربة صعبة وكريم مشـــغول بالماجستير وليس سهلا عليه ان يتقبل وجودي هناك معه.. كل ماسأمثله هو عبء جديد عليه...
- اعتبريها مصالح متبادلة.. هو يمنحك الدراسة والســـكن.. وانت تريحينه من اعباء المنزل فلابد وانه عرف الان قيمـــة الوقت الضائع في الترتيب والطبخ وبأن الدارسة أحق به..

كانت لفكرة حنان قبولها السريع لدى جدنا الذي لم يأخذ مـــن الوقت الكثير حتى يسحب موافقتي.. فرغم كبره وضعف جسده الا انه

لازال محط احترام وتقدير، فقد كان امام المسجد في شارعنا.. والجد الحكيم في بيتنا.. كلماته لم تمنح كريم فرصة للرفض.. ولا اعلم إن كانت هي السبب في موافقتي.. أم رغبتي في تحويل الشعرة التي تربطني بكريم الى حبل متين.. فالوهم الذي كنت احلم به بدأ يعود مجددا.. بدأ يمنحني طريقا للعبور اليه..

وقبل السفر كان لابد من انهاء جميع المهمات المؤجلة.. منها فتح باب الغرفة الخاصة بأمي

كما قالت ثريا "لقد حان الوقت".. جمعت ثيابها ومجوهراتها.. للتبرع بهم باسمها.. كان النبش بأغراضها كالنبش بالذكريات تماما.. حتى لكأن رائحتها لا تزال عالقة في المكان تأسرني بحضورها المفقود.. وصوتها المبتور.. سمحت لنفسي بأخذ قلادتها وعطرها المفضل وجميع كتبها.. وبين كل تلك الاغراض كان هناك هدية مغلفة.. سببت لأطرافي شلل مؤقت.. حتى البطاقة كانت بخطها...

"إلى ابنتي العزيزة... اتمنى لك حياة يملأها الحب.."...

هديتك القادمة من خلف الموت اثرها كالمعجزة في نفسي تماما... كان جهاز كمبيوتر محمول بدلا من جهازي القديم الرابض فوق مكتبي.. ها انتي تهدينني اياه بعد اختفائك.. أكنتي تحتفلين بتخرجي عن بعد ياترى؟؟.. في تلك اللحظة تفجرت في صدري الآهات وأقامت الدموع في عيني إضرابا جماعيا ضد حبسها الاجباري.. وكأن نفسي قد اكتشفت من جديد غيابكِ الأن.. وفقدكِ الأن.. واشتياقي.. وحزني.. ويتمي الأن.. نفسي تضج بموتك الأن يا أمي..

أقمت لك مأتماً خاصا اجتمعت فيه أنا ونفسي وذاكرتي مع اشيائكِ وجدرانكِ، على وسادتك من كانت تضم احلامك.. سأكون لك ما اردته، عهدا مني لك.. مستقبلي سأبنيه اكراما لك... في ذلك

اليوم أفرغت في ذكراك كل الدموع المخزنة بعيني.. وكل الحزن المطبق على انفاسي منذ عام كامل... فأنا لم أُجد يوما مشاركة الحـــزن.. الا بيني وبين نفسي.. فاعذريني إن تأخرت ببكائك ياأمي...

5

حزمت أمتعتي أنا ابنة القطيف لأسافر ولأول مرة إلى لندن... إلى مدينه الضباب والخيال... مودعةً عائلتي التي أحب.. ومتوجسة من لقاء من أحب.. آخر مارأيته كان دموع حنان وقلق جدي.. ثم ســـاعات بين السحاب امضيتها وحدي..

لا اعرف معيارا يوضح لي الفرق بين العقل والجنون.. إلا أنـــني احببت البقاء وحدي.. احببت الحديث مع نفسي.. ومجادلتها.. أحببت التأمل في الفراغ ومواجهة الزخم المتدفق من الافكار التي لايجمعهـــا الا انا.. أيكون الحديث بيني وبيني ضربا من الجنون ياترى؟؟

لم افهم ذلك الإنكار الجماعي لعباءة الوطن.. حاولت المكـــابرة ولكنني تحولت للشذوذ الذي يفسد القاعدة.. فالعباءة حين تسير هناك تماثل تماما امرأة تسير دونها في ضواحي القطيف.. اخفيت جرمي مطوياً في حقيبتي.. وجلست مهتوكة الروح على مقعدي.. أشعر بعيون العالم ترجمني بنظراتها..

وهناك في المطار وجدت كريم.. كانت الخيبة والقلـــق في عينيـــه جليا وواضحا.. فوجودي معه على نفس الارض كان غير مرغـــوب.. كان العبء الثقيل الذي فرضته رغبات الامهات الأخيرة.. وفي سيارة الأجرة بدأ حديثه...

- مريم.. تعرفينني.. عمليٌ لأبعد درجه.. وكما قال جـــدي يفضل ان نستغل الوضع ونستفيد من مميزاتـــه.. فلـــم أرد

الوقوف امام دراستك.. وكل ما اطلبه ان لاتقفي انتي ايضا امام حياتي...

هذه الموجة الحربية في الكلام وكأننا على جبهتين مختلفتين سببت لي تيارا من القلق...

- وما الذي اعطاك فكرة أني ساقف امام حياتك...
- اذا نحن متفقان... على كل منا أن يحترم خصوصية الاخر.. وحريته.. ولا أحب ان يتدخل احد اخر بتقرير ما سنفعل أو يفرض علينا امرا جديدا... كما لا احب ان يحكم احد على تصرفاتي وقراراتي...

لم استوعب ماكان يحاول قوله حتى وصلنا.. كانت العمارة تضج بالعرب في شارع اكسفورد.. كل طابق يتكون من ثلاث شقق مختلفة الحجم.. وجدته يفتح لي بابا لشقة مكونة من غرفة واحده ومطبخ مفتوح على صالة صغيره.. وضع حقائبي داخلها واعطاني المفتاح وهو يقودني للشقة الاخرى...

- تفضلي معي اريد ان اعرفك بشخص ما...

خلف الباب الاخر كان هناك امرأة تصرخ بآيات الجمال.. ترتدي قناع ابتسامة وتنتظر مواجهة المرأة الاخرى التي وللعجب كانت.. انا...

- اعرفك بـ لمار، من أب سعودي وأم سوريه.... زوجتي..

في تلك اللحظة شيء ما غرس في صدري.. وشيء أخر اشتعل بقلبي...

ذهب اليها.. وقف بجانبها وهو يكمل..

- وزواجنا ليس ورقة فقط بل زواجا حقيقيا...

ماذا حدث للعقبات والمسؤوليات... ماذا حدث للدراسة المهمة.. ولماذا دون علم اي احد من عائلتنا.. ولماذا اذن أنا هنا.. ولماذا هذا الالم الكبير الذي أشعر به؟؟

بكل ما اوتيت من كرامة وقوه مددت يدي.. طابعة شبح ابتسامه على وجهي...

- مبروك.. سررت بمعرفتك...
- اهلا.. وحمد لله على السلامة، لابد انك متعبة من الرحلة، ما أن تغيري ملابسك حتى يكون الغداء جاهزا...
- لاداعي لذلك.. لا اريد ان اتعبك..
- لا تعب بالموضوع.. ثم انها فرصة كي اتعرف بها على الزوجة الاولى...

أكان ذكرها لهذا الموضوع بالذات ضربة اولى في حرب الإناث.. أم تحذير أنها في الواقع الزوجة الحقيقية لا الورقية..

كانت قدرتي على التفكير تحتاج مني لإعادة ترميم في تلك اللحظة.. وكأن مياه لندن الاولى التي تنساب على جسدي قد اعطت اعصابي المتشنجة مزيدا من الاسترخاء.. ولدموعي مزيدا من الجليد.. بدأت بعدها بترتيل عبارات كان من واجبها ان تمنحني مزيدا من القوة والثبات.. لا اعرف أكنت احاول اقناع نفسي بها.. أم اجبار هذه النفس ذاتها على الاقتناع...

كريم ابن خالتي... وقد تزوج.. انا ابنة خالته فقط لاغير.. فقط لاغير..

هذه ليست خيانة فلم يكن هناك شيء بيننا...

لاتظلمي نفسك بالحلم به أكثر من هذا...

أنت اقوى من ذلك.. اقوى بكثير..

لربما كتب الله لي خيرا بذلك...

شحذت حواسي وذاتي في مواجهة جيراني الجدد... دققت الباب وانا افكر.. دوما هناك مسافة بيننا... كانت تفصلنا حديقة من قبل.. والان صار يفصلنا رواق.. فهل أنسحب أم أحارب؟؟ وأين تقع كرامتي في هذا الرواق؟؟؟

على مائدتها جلست انا وانت وهي... ثلاثي غريب... لم اتمالك نفسي عن الابتسام فقد كانت فكرة انني الزوجة الاولى كـ الكوميديا السوداء تماما... ميلودراما سينمائية لحربٍ دائرة بين الإناث على غفلة من الذكر القابع في المنتصف.. نظراتها لي كانت فاحصة متحديه.. وما ان تتجه اليك حتى تتحول الى وديعة.. مغرية.. خانعه...

في محاولة لكسر حاجز الفحص الذي اتعرض له.. بدأت الحديث..

- سلمت الايادي.. طعامك شهي بالفعل.
- بالعافيه.. رغم انك لم تتناولي شيئا تقريبا، أم ان طعام الضرة مر مهما كان حلوا...

كان لها نفس الطبع في رفع الحاجب عند التحدي.. ورغم انني ضد الحروب النسائية الا انني شعرت بغريزة خام تتحرك بداخلي مفجرة كل النعرات الانثوية... فابتسمت بتحد وشبكت يداي مستندة على طاولتها..

- كلمة ضرائر اصبحت للجيل الماضي.. ولكني أؤمن بالفعل بأن الفكرة قد تطغى على الطعم.. اخبراني الأن كيف تعرفتما ببعض!؟

أجابتني لمار بكل زهو.. بلكنتها الشامية الجذابة..

- نحن ندرس معا في نفس المرحلة..

اها.. وضحت الرؤيه... إنها من صنف المشارط مثله تماما...

لم يتمالك كريم اغراء الحديث عن عملياتها ومشارطها وقدرتها الهائلة في الثبات اثناء تقطيع الضحية.. كان يغريه فيها ماكان يحب في عالم الطب والأدوية والتشريح... تثيره معلوماتها بكل عصب ووريد.. كان عاشقا متيما بأصابع معشوقته بدلا من عينيها الخضراوين.. وبعقلها النابغ بدلا من تلك العضلة التي نسميها قلباً.. خارج المعطف الابيض لم يذكر شيئا.. فقد كان واقعا تحت سحر البياض.. ودقة البياض.. وكمال البياض... وكانه قد نسي ان هناك الوانا اخرى تستحق الجمال..

استأذنت بكل ما استطيع من لغة المجاملات.. للانفراد بنفسي بين جدراني الجديدة التي سأتعرف عليها.. وسار هو معي على رقابة من عينيها هي.. ليعدني بساعات يخصصها لي لإكمال اجراءات التحاقي بالجامعة وكي اتعرف على الشارع والاحياء العربية... وعلى لمار.. يظننا سنصبح اصدقاء.. للمرة الاولى ارى السذاجة في محياه كرجل.. كيف لم يدرك.. شرارة الحرب في عين لمار.. والعصبية في اصابع لمار.. والفلفل الحار جداا في طعام لمار..

- مريم اظن انه من الواضح لك ان زواجي أمر خاص لا داعي لإخبار العائلة به..
- وهل هذا امر يخفى ياكريم.. وجدي المسكين كان يخاف عليك من الوقت المهدور في اعمال المنزل...
- لقد تم ذلك بسرعة ودون تخطيط.. واحب ان اخبرهم بنفسي بهذا الخبر.. فهل من الممكن ان تحتفظي لي بسري...
- كما اتفقنا منذ البداية... احترام الخصوصيات.. لاتقلق..

اقفلت فمي بحركة القفل والمفتاح مقلدة حنان التي طالما كانـــت تفعلها امامي بنهاية كل حديث كان يدور بيننا ويمتلك طابع السرية.. فإذا بـــي اجده يضحك.. لا اعلم ان كان بسبب حركتي.. ام بسبب تذكرنا لحنان.. ام بسبب الارتياح الذي كلله الاتفاق بيننا بعد تـــوتره الملحوظ.. إلا أن ضحكته اشعلت في قلبـــي نكهة غريبة من الفرح.. بينما كان هناك في قلب لمار شيء قد بدأ يشتعل..

اكتشافي الجديد عنه أكسبه طابع الانسانية في نفسي بعد أن كان ملاك.. أصبح مجرد رجل قابل للوقوع في الهفوات والزلات.. لا محصنا او معصوما من الاخطاء.. لم يعد له صرح عالٍ لا تطاله يداي.. هاهو ذا أمامي.. تنطلق عفويتي معه دون أرادتي لتتفكك أحجيـــة الـــوهم.. ويزداد ولعي وقهري.. فقد أصبح على ذمة امرأة آخرى...

6

غثيانٌ فكري بدأت به صباحي الاول في لندن... تفاصيل جسدها المحموم بالأنوثة معلق على قباب ذاكرتي المحمومة بك دوما.. رغم جهادي.. رغم نفيك المختوم عبر منطقي وادراكي.. تضل صورتك معلقة في جدران احلامي.. يقظة كانت او منام.. وهاهي زوجتك تقتحمني دون انذار بشعرها الأشقر المتموج وبشرتها البيضاء كالحليب..

لا يوجد في الحياة زر كالـ "delete" يلغي مالا يوافق النفس ورغباتها.. زر صغير يصادر الخيبة العالقة بنا ويسحب من التاريخ قراراتنا الفجة التي تعبث بالحاضر.. لايوجد ما الغي به لمار من حياتي وحياتك..

كان وجود كريم في الايام التاليه منجدا لي.. فحياة الجامعة مختلفة تماما هنا.. لا الفصول ولا الاروقة تشبهنا.. حتى الجداول لم استوعب معناها في البداية كان اختيار الاقسام سهلا جدا.. فقد كنت احاول تجربة ما ليس متاحا لدينا.. ودراستي للأدب الانجليزي كان يسهل مهمتي.. استقريت سريعا على مقاعد العلوم الإنسانية.. كل يوم كنت استمتع اكثر.. واتعلم اكثر.. حتى ان شقتي الصغيرة قد تحولت لغرفة كتالوجية التصميم بأدنى قدر ممكن من المصاريف.. ففي الجامعة كانت لوحة الاعلانات امرا جديدا بالنسبة لي، لا اقصد بذلك الاعلانات الدراسية، وانما اعلانات الطلبة.. نشاطات، حفلات، وحتى عروض لبيع

الاثاث.. ادمنت المرور من تلك اللوحة وقراءة اعلاناتها.. فالاخبار المحلية دوما تجذبنا.. تثير فينا حب الاستطلاع.. وتروي نهمنا للفضول.. تناسيت جيراني غارقة وسط هذه الحياة الجديدة.. بعيدا عن كريم وعلى بعد أمتار منه.. مؤجلة أية أفكار تحمل أسمه.. متلذذة بطعم من الحرية المطلقه التي أتاحها لي دون أن يقصد.. سابحةً في اجواء لندن.. في كل شارع كان لي مكان.. في كل مقهى.. وفي كل مكتبه..

كان يحلو لي اضاعت ساعات من نهاية الاسبوع في الهايد بارك.. على ذلك البساط الشاسع الخضره.. تحت شجرة ما.. اقرأ بنهم مؤونة كتبي التي احضرتها من الوطن.. واتابع كل ماتجده عيناي من آيات الجمال.. ففي هذه الحديقة كل الزوايا تتبارى في عرض الجمال.. لم أكن أشعر بالغربة التي عنها كان العرب يتكلمون.. فالقطيف كانت تسكنني.. تملأني.. تسير عبر اوردتي وتتربع عرش مخيلتي.. بحرها، هوائها، افرادها، افراحها... وحتى في الندب احزانها... لكأنكِ في البعد اصبحتي احلى.. لكأن البعد قد زادني بك زهواً.. اشتاقك كشوقي لأمي تماما.. لكن شوقي لإيجاد نفسي كان يشتتني.. كنت اشعر بالجهل امام نفسي.. كيف لهذا العالم أن يدور بهذه الوتيرة.. وهؤلاء الناس باختلافاتهم وتوجهاتهم وصراعاتهم، يتمازجون فوق أرض واحده.. كيف وصلوا ولماذا واين سيذهبون؟؟.. كل منهم يركض باتجاه حلمه الاكبر.. فماهو حلمي انا؟؟... التفكير بالمستقبل لم يكن من ضمن اختصاصاتي يوما.. كنت دوما أعيش الأن... في اللحظة التي نسميها الأن... هذه اللحظة التي لن تعود، ما ان تدير ظهرها حتى تختفي من الوجود.. ولن يكون لها مكان الا في أجنداتي المنسية.. ماعدا تلك التي تفرض وجودها على اطراف الذاكرة.. تحضر دوما لتملأنا فرحة وحنين... فكيف اجيء بمزيد من هذه اللحظات ياترى؟؟؟

كل صباح كنت اسير حتى اصل لمقهى جديد.. اجرب قهوته وبيضه وهدوءه... كل مقهى كان يترافق مع كتاب.. مع ذكرى.. اكون هناك ولا اكون.. حرية التجربة كانت بلذة القهوة ومرورها تماما.. جميل جدا ان احدد أين اسير وإلى أين ومع من ولو حتى دون هدف.. كنت أنا صاحبة القرار.. دون قيود.. دون خوف.. ولأول مرة دون إذن من أحد.. إلا ان الصدفة احيانا تلعب دورها.. لتعرفنا على من نعرف.. لتعرفنا على من كنا نظن اننا نعرف..

من بين جميع المقاهي وجدتني بنفسك.. جلست ترتشف القهوة امامي وأنا كنت في انفصالي اتابع دان براون في روايته "ملائكة والشياطين"... كان موسم الاثارة والتشويق في ذلك الاسبوع أثارتني الفيزياء والجسيمات، نظرية البيغ بانغ وعلاقتها ببدء الكون.. احتجت للبحث والاستقصاء كي افهم تلك الكلمات التي سحرتني والتي كانت من اختصاص أبي.. ليقوم عقلي بترجمة اسلامية معقدة لها..

لا اعلم كم ظللت امامي.. لا اعلم كم غضبت وانت امامي.. حين لم ارك.. حين لم اشعر بك.. كنت مغلفة بدرع واق من اللامبالاة يقيني ضد وعكات من الشوق.. في حالة من الانفصال المؤقت عن كل ماكان في الكون.. كنت أنا..

- آحمممممم..

رفعت راسي.. فاجأتني.. وقطعت علي لحظة احتراق الكاهن...

- كريم... ماذا تفعل هنا...
- كنت اشتري لي فنجان قهوة... ثم مررت بجانبك... ووقفت.. وجلست.. وانتي في عالم اخر...

كان يشغل بالي هل سيموت الكاهن ام سيتمكنون من انقاده!!

- عفوا.. لقد كنت في قمة الاندماج...
- هذا واضح... لم ارك منذ اكثر من شهر.. اوصيت لمار بالسؤال عنك ولكنها لم تحدك... الى اين تذهبين؟؟
- تعلم الجامعة ولندن.. كما واني ادمنت التسكع بالهايد بارك، وكأن الـ 24 ساعه لا تكفي هناك.. ثم انت تطمأن علي وتراسلني..

بجبين مقطب.. رفعت حاجبك مندهشاً..

- أتزعجك رؤيتي؟؟
- لا بالطبع لا.. ولكنني اعلم ان لك حياتك الخاصة.. دراسة وزوجه.. ولا اريد ان امثل لك عبئا او اخذ من وقتك اكثر مما اعطيتني...
- مريم انت ابنة خالتي.. وزوجتي رسميا.. وواجبي الاهتمام بك..

من اين جاءت هذه الشهامة الأن.. أمعقول انها تفجرت عندما جمعتنا الصدفة.. أم أنك قد تذكرت شعاراتها فجأة.. يبدو ان رجولتك قد نسيت معلومة صغيرة وهي أننا نسكن في الطابق نفسه...

أخذت أتأملك.. ملامحك جدية، لم تكن تمزح...

- كريم.. مالذي جد كي تثير هذا الكلام..
- الحقيقة تحدثت مع الاهل البارحة وكان جدي يسأل عنك.. وعن الاوضاع هنا شعرت بنفسي اكذب وأنا اطمئنه.. وشعرت بتقصيري.. فما بين الدراسة والمشاكل ولمار.. أهملتك...
- لا تقل ذلك.. في الحقيقة لقد اعطيتني مساحة من الهدوء ابدأ بها حياتي هنا.. وسط كل الاهتمام الزائد من العائلة..

يتوق الانسان احيانا للجلوس مع نفسه واكتشافها.. بدون مقاطعة...

- هل قاطعتك الأن.. يبدو ان دراستك مكثفه.. رأيتك قبل اسبوع تسيرين بكتاب مختلف أسمن من هذا...
- هههههههههههههه

ضحكت من قلبي دون اي تحفظات.. كنا كالأصدقاء نتحدث عن الكتب السمينة.. وأنت تبدو مندهشا.. شعرت بنظرتك تراني للمرة الأولى...

- كنت اقرأ لدوستوفسكي قبل فترة بالفعل.. وهي ليست كتب منهجيه... انها هم مرضي فقط..
- ومالذي يجعلك تقرأينها!!؟؟
- كالذي يجعلك تقرا كتابا طبيا لا علاقة له بالمنهج...
- انه يساعدني على الفهم اكثر..
- وأنا تساعدني على الحياة اكثر.. او كما يقول العقاد نحن نقرأ لان حياة واحدة لاتكفينا...
- يبدو انني متزوج من فيلسوفة وأنا لا أعلم...

أثارني ذكرك للزواج للمرة الثانية.. مالذي تحاول قوله بنبشك في الورقة التي بيننا..

- وما اخبار زوجتك؟؟ لم أرها منذ ذلك اليوم..
- لا اعلم مالذي حدث معها.. اتصدقين انها تغار منك وتتهمني بمقابلتك كلما تأخرت خارجاً.. وفي المستشفى تحولت الزمالة التي كانت بيننا الى تنافس شرس... بالاضافة لـ....

كان للحظة صمتك امتلاء الصخب... و لم أشعر بحقي في أن احتضن منك الكلام..

- لاداعي لإكمال التفاصيل مادام الموضوع شخصيا..
- كلا.. بالعكس اشعر بالراحة وأنا اتحدث معك.. بالحقيقة لايوجد من استطيع الحديث معه في هكذا موضوع.. كنت اظن نفسي متفتحا وعمليا.. ولكن أجدني أخجل كلما رأيتها تتحدث مع طبيب.. أو تضحك مع مراجع.. كما وأن موضوع الحجاب يعد مشكلة بحد بذاته.. لا أريد اجبارها ولاكن لا تربيتي ولا انتمائي يسمح لي بغض النظر عنه.. لا اصدق نفسي وانا افكر بهذا ولكن اكاد اعترف ان لمار كانت نزوة فقط...

لا.. لا تتسرعي مريم.. خذي نفساً عميقاً.. وفكري.. لا تلقي بنفسك امام اول عتبة أمل.. كوني موضوعية فقط.. وجوده أمامي ليس اشتياقا لي بل حاجة ملحة تنتابه للحديث.. هكذا كنت أخاطب نفسي.. اتلو عليَ تراتيل الكرامة كي لايهدرها الامل على حين غفلة مني..

- هل فكرت انك لم تعطها مايكفي من الاهتمام.. امام اول مشكلة رفعت راية النزوة... أليس ما بينكما يستحق ماتكافح من اجله.. ابني جسرا لها علها تجدك في منتصفه.. اشتري لها زهورا.. قدم لها خاتما في دعوة عشاء...

ما اجملها ابتسامتك التي منحتها لي.. ما اجمل البريق بعينيك الذي اشبعتني فيه.. آه كم أنا مولعة بالنظر اليك.. أشعر بك كترياق لمرضٍ لا أريد الشفاء منه..

- متى اصبحتي كبيرة هكذا...
- ارجوك.. انا كبيرة منذ ولدت.. وحكمتي انشرها للتائهين..

- اشعر وكأنني أتعرف على جوانب بك لم اعرفها من قبل.. لم اعهدك تميلين للمزاح...
- كان الحياء يلعب دوره في ذلك الحين.. ولعله يصبح أخف وزنا ما أن نغادر أرض الوطن..

لا لم يكن الحياء.. كان لحضورك قداسة تجبرني على اتباع طقوس الحياء تلك.. كان القليل منك المار في لحظاتي التائهة كالكثير من كل شيء عداك.. فكثيرك يربكني.. يضيعني.. يغرقني في جب الهذيان...

وكان لابد لحديثنا من الانتهاء.. فقد حان وقت الجامعة.. وانتهى وقت المزاح.. وانتهى معه وقت القهوة والهذيان.. غادرتني و لم تفعل.. لم استطع العودة لكتابي فقد ارهقتني تفاصيلنا المشتركة.. التي حدثت بيننا والتي لم تحدث بعد....

عطرك.. انفاسك.. نظراتك.. وحتى انتباهك.. كل خلية اليوم كانت اقرب لي من كل العمر الذي قد مضى.. وها أنا ذا ارسلك لامرأة اخرى، أي حماقة ارتكبت، وأي جريمة في حق المنطق قد جنيت.. حملت اغراضي ولملمت بعثرتي التي سببتها وسرت لجامعتي.. اشغلت عيني بكل ما مررت به في الطريق متجاهلة رخم الافكار التي كانت تهاجمني... وحرارة جلدي الذي اكتوى من جلسة قهوه وحديث..

ركبت بذلك اليوم احدى باصات لندن الشهيرة، كي اشتت تركيزي قليلا، ولكن لم يكن لذلك من فائده.. إلا ان نظرات اخرى هى من استحوذت على اهتمامي... فتاة محجبة لها بشرة الوطن.. كانت تنظر لي بدهشة واضحة.. بل بصدمة واضحة لم افهم معناها، لم اتبين مالذي احسسته بالضبط، ولكني شعرت بوجهها مطبوعا بذاكرتي، رأيته من قبل، بل أجزم بأني اعرفه ايضا.. ولكن اين؟؟ لم

اوفق باكتشاف ذلك او تذكره.. كانت تتابعني باهتمام.. أتعرفني هي الاخرى؟؟؟ كل ما كنت استطيع فعله.. هو ابتسامة كعربون لقـــاء... وسرت لمحاضرتي...

جلست في القاعة بجانب بلقيس صديقتي الجديدة، كيان جديـــد يبهرني.. قمة التحرر بقمة الدين، تجلس لتسمعك قصائد نزار في حبـــه لبلقيس.. وتترنم ليلة الجمعة بدعاء كميل والجوشن الكـــبير.. كانـــت سعيدة باسمها، وكانه هدية من امها التي لا تذكر.. تعيش هي وعائلتها البحرينية المكونة من والدها واخيها في لندن منذ عشر سنوات.. حيث تعرف والدها على زوجته البريطانية لتنضم لعائلته في محاولة لسد ثغرة الام المفقودة..

في نهاية المحاضرة الطويلة والمرهقة من الأنثروبولوجيـــا امســـكت بلقيس ذراعي وهي تقودوني للكافتيريا..

- اتعرفين يامريم وجودك نعمة من الله تعالى.. كنت سأنســـى العربية من قلة حديثي بها.. فأبـــي يغضب حين نتحدث في المنزل بالعربية يقول انها قلة اكتراث وعدم اهتمام بمشـــاعر كيتي.. لأنها لا تفهم مانقول..
- الا تظنين ان معه حق بذلك...
- بالطبع معه حق.. كيتي تستحق كل المراعاة التي نســـتطيع تقديمها.. فقد كانت كالأم بالنسبة لنا جميعا.. خصوصـــا بالنسبة لابـــي.. كانت وحدته تؤلمنا أنا وفارس، ودخولها لحياتنا كان كالبلسم تماما..
- هل اعتنقت الاسلام لأجلكم..
- لا.. حين تعرف عليها ابـــي كانت مسلمة بالفعل.. كانا يحضران احدى المحاضرات الدينية ويشتركان في الحـــوارات

والمناظرات هناك...

- قصة عشق اذن...
- نعم العشق الذي لم يطرق بابـــي للأن.. لا اعرف ما الذي ينتظره..
- يبدو ان بعض الناس على عجلة من امرهم..
- لا ان بعض الناس قد تأخروا على قطار الحب والعشـــاق.. كما يقول نزار:

عندما أركب في الليل قطارات الجنون..
طالما أنت معي..
لست مهتماً بما كان..
وما سوف يكون...

اريد رجلا مثل نزار.. يحبني كما احب هو بلقيسه...

- احلمي ياصديقتي احلمي.. فـــالحلم مجانـــا تقدمـــه ارض الجنون..
- نعم هكذا اريدك يامريم مجنونة في حضور الشعر.. ما رأيك أتحضرين معي الليلة الأمسية الشعرية؟؟ إنها لمجموعـــة مـــن الشباب العرب.. مارأيـــك ان نحضـــر لتقـــديم الـــدعم المعنوي..
- لا اعلم..
- هيا لا بد من تشجيع المنتج العربـــــي.. ســـأمر عليـــك في السادسة وأعيدك في التاسعة عـــرض لايفـــوت مـــاذا قلتي..

- كم انتي بخيلة ظننتك ستدعينني على العشاء ثم ترجعينني في المساء...

قفزت بلقيس من مكانها وسط الكافتيريا وهي تصفق صارخة...

- رااائع بالفعل، رغم أنك تثبتين الاشاعات المطلقة على العرب....
- ماذا تقصدين...
- هيا ياصديقتي... نحن العرب في كل مكان نرفع الشعار نفسه.. عند البطون تعمى العيون.. ثم لابد من عشاء دسم كي نستمع للشعر جيدا الليلة بدلا من سماع معدتك وصريرها...
- لا لاداعي لذلك... كنت امزح فقط...
- لاتتراجعي الأن.. انطلقي وقولي كل مايخطر ببالك فليس هناك من سيحاكمك من اجل كلمة هنا.. ثم ان شخصيتك تعجبيني.. اشعر انك تكملينني.. وكأني انظر لنا بعد أعوام نعرف ابنائنا على بعضهم البعض ليلعبوا معا..
- بلقيس.. حان وقت الهبوط الى أرض الواقع..
- حسناً يحق لي الحلم ياصديقتي.. استأذنك لحظة لأبلغ كيتي بحضورك.. انها تحب قدوم الزوار للبيت.. شيء جديد يكسر الروتين..
- أليس لديها عائله؟؟
- بلى.. ولكنهم تركوها بعد ان اسلمت..

تركتني لتجري اتصالها.. لتعود لي ذكرى والدي.. وعائلته التي لم اعرف، الذين طردوه من حياتهم تماما كـ كيتي.. هذا الفراغ الكبير الذي خلفه عدم معرفتي بهم كان يؤرق ذاكرتي.. يجتاحني بكل

علامات الاستفهام والتعجب.. مجهول مطلق لست مستعدة لعبوره بعد.. او حتى التفكير بأي امكانية لطرق بابه...

بعد المحاضرة الأخيرة ذهبت مع بلقيس في سيارتها.. لم اكن معتادة على رؤية فتاة في مكان السائق ابدا.. كما وقد كان نادرا ما اجلس بجانب السائق فلم يكن لي أب او أخ يشغل هذا المكان.. كان مكتوبا علينا ان نكون بالإسم ملكات نحتل المقعد الخلفي متسولات في سبيل التوصيل..

احتفلت كيتي بانضمامي لعشاءها.. كان جوا عائليا مختلفا.. لم تنطق فيه كلمة بالعربية لأجلها.. أمومة طاغية كانت تنبع منها.. أثارت في نفسي مشاعر الاشتياق..

كم هي غريبة الذاكرة.. تُسكن في النفس جوع بدائيٌ لحضن الأم، تثيره كل الامهات، تعبث به في كل لحظة حنان.. وفي كل اهتمام..

توجهنا بعد ذلك أنا وبلقيس لحضور الأمسية.. اكتشفت أنها لم تكن للشعر فقط بل تجمعٌ للابداعات المختلفة.. مابين نحت وتصوير، حتى الموسيقى كان لها دور في تناغم الكلمات.. مكان يعبر فيه الشباب عن مقدار بسيط من طاقاتهم المكبوتة في ادراج الخيال..

انتهت الأمسية ووجدت بلقيس في احضان احد أولئك الشباب تهنئه، لم تكتمل صدمتي الا وقد عرفتني عليه...

- مريم اقدم لك اخي فراس... استمعتي لقصيدته قبل قليل...
- بالطبع.. مرحبا، كانت القصيدة رائعة..

ابتسم فراس وانا في قمة الارتباك فلم يسبق لي محادثة رجال عن القصائد من قبل..

- اتمنى ان تكونوا قد استمتعتم معنا هذه الليلة.. لم نتوقع قدوم هذا العدد وهذا الدعم من العرب المقيمين هنا..

بلقيس: اووه ياأخي السهرة كانت رائعة جدااا.. و لم انعس حتى في وسط القصيدة، وهذا دليل على جمالها...

لم اتمالك نفسي من الضحك على تلقائية بلقيس وحيويتها.. وعلى نظرات فراس المتوعدة لها، شعرت بمقدار من الحسد فهي تتفوق علي الان بأخ، وأب، وبأم بديله...

- بلقيس علينا الذهاب الأن كي لايتأخر الوقت أكثر...
- حسناً.. اراك في المنزل فراس...

قاطعها فراس..

- لا تذهبا وحدكما الأن، أنا قادم معكما، ثم اني لم أتِ بسيارتي وسميره فوق السحاب الأن..

اوضحت لي بلقيس...

- سميره هي خطيبة فراس، وهي تعمل مضيفة طيران.. وهو الأن في حكم المسكين.. علينا ايصاله الى المنزل معنا وإلا تاه في الطريق...
- آه منك ومن لسانك.. سنرى قريبا من هو المسكين..

اتجهنا للسيارة وانطلقنا عائدين.. كانت لندن تتلألأ في سكون الليل كل الشوارع تختلف عما كانت عليه في ضوء الشمس.. بريقها الساحر تملكني دون ان استطيع اخفائه حتى ان بلقيس لاحظت ذلك..

- مابك مريم..
- انها المرة الاولى التي ارى فيها لندن في الليل..
- معقول، لا اصدق.. اذا لم تنتهي السهرة بعد.. سنأخذك في جولة سريعة في اجمل بقع الليل هنا..

- لا داعي.. لا اريد التأخر اكثر...
- لن تتأخري.. ثم غدا week end فلا داعي للخوف.. فراس دعنا نأخذها لعيون لندن فهي رائعة في المساء...

توجه عندها فراس لطريق جانبي تنفيداً لطلب أخته المشاكسة.. لم اعترض فقد اغرتني ان اعرف ماهي عيون لندن؟!!.. انشغالي بالدراسة والاستقرار لم يتح لي على مدى اكثر من شهر ان اتجول كسائحة في انحاء لندن...

عيون لندن.. حلقة عملاقة تتسع لعدد كبير من الركاب.. اضوائها تعطي بريقا رائعا في الليل.. اشترى لنا فراس تذكرتين وذهب لاحتساء القهوة في احد المقاهي المقابله..

وفي طريقنا للصعود كانت بلقيس تضحك فجأة...

- مابك هل جننتي...
- تذكرت شيئا مضحكا، إن خطيبة فراس مضيفة طيران...
- وما المضحك بذلك..
- انه مصاب بفوبيا المرتفعات..

تعالت ضحكاتنا فقد كانت مفارقة غريبة بالفعل..

في اعلى العيون كان نهر التايمز يجري بالأسفل وعلى ضفته كان قصر وستمنستر حيث ترتفع دقات ساعة بيغ بن لتعلن تمام الساعة التاسعة... كان سحر الليل في هذه العربة الطائرة يتملكنا ولا يتيح مجالا لأي كلمة اخرى.. وكان اشتياقي لبحر بلادي يتأجج مع كل موجة اراها في الأسفل من تلك العيون.. بحري المهتوك بتراب الردم المستعر والذي لم تشفع له كل الصحاري جرم جماله وسحره.. قطع الصمت رسالة وصلتني في تلك اللحظة من كريم..

"مريم... اين انت في هذا الوقت؟؟ لم اجدك في شقتك.."

ارسلت له لأطمئنه بسرعه..

"انا الان مع صديقتي فوق نهر التايمز.. في عيون لندن.."

لم تتمالك بلقيس فضولها..

- من يطمئن عليك الأن..
- انه ابن خالتي...
- اممم.. لا احب التدخل في خصوصياتك.. ولكن اليوم حين سألتني كيتي اكتشفت اني تقريبا لا اعرف شيئا عنك.. فمثلا الفتاة السعودية لا تسافر الا بمحرم، فمع من انت هنا؟
- مع ابن خالتي...
- .....
- انه زوجي..
- انت متزوجه!!.. معقول؟؟!!.. لم اتوقع ذلك كما وانك لا تضعين خاتما..
- بلقيس الموضوع معقد جدا.. انا هنا مع زوجي.. وزوجته..
- ماذا؟؟؟

اتسعت عينا بلقيس مصاحبة لشهقة عملاقه، آثار الصدمة كانت مطبوعة على وجهها..

- سأخبرك كل شيء ولكن ليس الان لا اريد ان تفسد هذه الليلة الرائعة تفاصيل كهذه..

أحترمت بلقيس سكوتي.. ورغبتي.. وقضت على فضولها على الاقل لباقي هذه الأمسية.. ورجعنا حيث اسكن.. حيث كريم يسكن.. غريب جدا هذا اليوم كيف اقتحمه بصدفة صباحا وبرسالة

في المساء.. ما أن دخلت وخلعت حجابي حتى دق الباب فلبسته مجددا.. و لم افاجأ أن من خلفه كان كريم... بنبرة هجوميه.. بدأ..

- من هذا الذي قام بإيصالك..
- انها صديقتي بلقيس وشقيقها..
- ومالذي دفعك للركوب مع غريب في سيارة واحدة..
- كنت ذاهبة مع صديقتي للامسية الشعرية و لم اكن اعرف ان اخاها مشارك معهم.. وطلب منها الرجوع للبيت معنا هذه كل الحكاية..

لا اعرف ما كان يشع من عين كريم في تلك اللحظة.. لم يكن غضبا فقط.. ولا قلقا فقط.. كان اشياء اخرى تحترق.. اشعلت رائحتها في انوثتي نشوة عارمة.. كان امرا عاديا ان يقوم الاخ بإيصال شقيقته وصديقاتها في القطيف.. كان امرا عاديا ان يذهب بهم للمجمعات التجارية أوالمنتزهات.. أفلا يكون عاديا في لندن ياترى؟؟ أم انه لم يكن عاديا فقط في نظر كريم؟؟

وفي وسط الهدوء قال تصبحين على خير وذهب.. وتركني اتخبط في صخب مالم يقله.. لاجماً لكل مارأيته في عينيه..

مابين ذهابه ودقة الباب الثانية كانت دقائق معدودة.. حتى لكأن المسافة بيني وبين الباب اميال عديده.. أمعقول كيف تفجر شوقي له مجددا.. وكيف استطاع أن يحيا ببساطة بعد عملية وادٍ استنزفت مني طاقتي وقدرتي على التوسد بالأحلام..

ولكن.. لم يكن هو من خلف الباب..

دفعتني لمار واغلقت الباب وشرارات الحقد تحرق جلدها.. متقدة بجمرات من الغيرة..

- الان سنتكلم من امرأة لامـــراة.. ولنضـــع الاوراق علـــى الطاولة.. الاعيبك الرخيصة لا تنطلي علي..
- عن ماذا تتكلمين؟؟
- لا تتصنعي دور البريئة.. التقيتي بكريم صباحا اخبرني بذلك قبل قليل.. فما هذه الصدفة التي تجمع لقائكمـــا واســـلوبه الجديد في شراء الازهار.. ثم قدومك الليلة مـــع رجـــل في السيارة كي تثيري غيرته واهتمامه.. طوال شهر يلاحقـــك بالرسائل بحجة الاطمئنان عليك.. ولكن ذلـــك لايكفـــي بالطبع.. لابد ان تصطاديه بطريقة اخرى.. لقد قللت كثيرا من ذكائك.. برافو..

كانت تصفق بيديها.. والغضب يشع من عينيها.. أكـــان هـــذا مايحدث؟؟ أكنت احارب دون ان اعرف لاسترجاع حبـــي واحيائه.. هل تملكني الشوق لأحلم بك مجددا؟؟

فتحت الباب في حركة سينمائية ادعوها للخروج من شقتي.. لم استطع ان اكون في منافسة معها، وبأسلوب كأســـلوبها علـــى رجل، حتى لو كان هذا الرجل هو كريم.. حبـــي الـــذي لايريـــد الموت..

لمار ليست من الصنف الذي ينافس بل مـــن الـــذين يســـحقون وينجحون فوق جثث المراكز الاخرى.. من اولئك الـــذين وجـــدوا انفسهم دوما الرقم واحد ولايستطيعون تصـــديق ان هنـــاك اخـــرون يحملون الرقم نفسه في شهاداتهم.. مثلها تماما.. كانت تمتلك نرجســـية واضحة.. لا يمكنها ان تتماشي مع العقلية القطيفية لرجل مثل كريم.. كنت ارى ذلك كله من بعيد.. وانتظر.. فقد كان لكرامتي معيارا ثابتا يمنعني من الخوض في هكذا معارك..

خرجت لمار وهي ترميني بنظرات من الاحتقار والتعالي لا اعلم ان كانت تعتبر صمتي انتصارا لها.. و لم اهتم.. فقد كانت نظرات كريم قد استوطنت ارضي واحتلت كل ما وجدت امامها من مساحة في نفسي.. لأول مرة لم استطع النوم.. لم استطع ممارسة الهرب من يومي وتفاصيله المترفة.. لم استطع الا التفكير به.. بصوته، بغضبه، بغيرته الجديده، وغموضه الدائم.. لكأن سباتي قد وقع معاهدة صلح مع الارق، لا يفيد لنقضها التقلب وسط الظلام.. فلكم هي مناعتنا العاطفية ضعيفة قابلة للتهشم في اي لحظة يصل فيها جنين الامل.. تلده نظرة من عينيك فقط..

7

صحيت في الوقت نفسه لامارس الطقوس الصباحية نفسها.. المشي حتى الهايد بارك في نهاية الاسبوع كانت خطتي بالامس.. ولكني توجهت اليوم بدلا منها لمقهى الأمس.. وطلبت قهوتي في محاولة فاشلة لإكمال روايتي كل ما احتاجه هو صفحة واحدة من التركيز لتنساب بقية الصفحات بعدها بانتباه.. ولكن يستحيل علي هذا وسط موعدنا الذي لم نتفق عليه.. كنت انتظر بثقة لا اعرف مصدرها انك قادم.. ربما كان احساس المرأة التي بداخلي والتي فجرت بالأمس معلنة كيانها، وازدادت ثقتي بها اليوم حين رأيتك تجلس امامي وتطلب قهوتك.. وبيض لنا معاً وتركز على خبزي خفيف التحميص، اول اثبات لمعرفتك تفاصيل فطوري.. اعجبني تواطئنا الصباحي هذا، تحدثنا اليوم في كل شيء وفي لاشيء.. كصديقين.. اخبرته عن بلقيس والليلة السابقة وكيف فشل نهر التايمز في ان يصل لجمال بحرنا في القطيف، وعن فراس وخطيبته ومفارقة الفوبيا مع الطيران.. واخبرني هو عن المستشفى ورئيسه وعن عامل النظافة المسكين الذي اتهم ظلما بسرقة امبولات من المورفين.. كان يتحدث لي أنا.. وينتظرني أن اتحدث أنا.. وليس شخصا اخر.. في وسط الارتباك الذي كنت اشعر به كان هناك قناع من الكبرياء يتشكل على وجهي.. ويغلف أحرف كلماتي.. كنت كامرأة أخرى أتعرف عليها وانا معه.. تولد فجأة حين اكون بالقرب منه.. تمنحني مقدارا من القوة نتقوى به معا في مجابهة كريم.. فأعدنا أنا

وهي، ترتيب صباحاتنا بما يليق بحضوره.. تشفع لي كلمات سعاد الصباح إعادة فتحي لأبواب حلم كان يسكنه.. منذ اكتشفت عيناي كيف تنقب عنه طوال اليوم..

إذا ماافتَرضْنَا..
بانك لستَ حبيبي
فماذا أكونُ؟
وماذا تكونْ؟
وكيفَ أقول بأنّيَ أنثىَ؟
إذا لم أخبِّك تحتَ الجُفُونْ

هذه المواعيد الصباحية التي لم نقطع، تكررت لأسابيع لاحقه.. دون ذكر منا لإسم لمار كمنطقة حرمت على نفسي دخولها، فالتفكير بأي منا كانت تسرقه من الاخرى لم يكن يرهق صباحي، فليست هي المرأة التي تدخل بيتنا في القطيف، وليست هي من تقبل رأس خالي أحمد أو يد جدي الشيخ الحبيب... ليست هي من تغفر لحنان زلات لسانها ولامن تحترم ثريا وأولوياتها..

لم اكن امرأة متطرفة في مشاعري يوما او من اولائك العشاق المحلقين.. بل على العكس تماما كنت اهوى ثبات قدمي على التراب وصحة عقلي من لوثة جنون قد تصيبه.. من بعد نزوة لازال حبيبها غارقٌ في براثمها.. اخشى إن كانت لمار نزوة أن لا أتعدى أنا لحظة هبل ذكوري فقط حركه الشوق لتراب الوطن.. و لم يكن ذلك ليمنعني من الوصول كل صباح قبلك وانتظارك.. والطلب معك كي لا تبرد قهوتي فأسبقك بإنهائها..

- ماهي قهوتك بالضبط؟؟
- ولماذا تسأل..
- كل يوم اراك تطلبين قهوة مختلفة..
- حسناً.. سأعترف لك.. ليس لدي للأن قهـــوة مفضـــله.. فطعمها يتماشى حسب أمزجتنا وتقلباتها.. فلم اظل علـــى قهوة واحده ومزاجي يتماشى مع تعدد النكهـــات.. قـــد تجدني اليوم اطلب قهوة فرنسية بالبنـــدق وغـــدا شـــاي بالحليب.. وبعـــده اسبيريســـو او موكاتشـــينو.. كلـــها مشروبات تسَكْن من انتكاسة هذا المزاج..
- اتعرفين ان هناك نفس القانون يفكر فيه الرجال ولكن بدل القهوة تكون النساء..
- لكن النساء بشر وليس شراباً...
- ربما كان المبدأ واحدا.
- لا..
- و لم لا؟؟
- لأن القهوة لا تشعر بالخيانة التي تشعر بها المرأة، ولا تتجرع صبر الانتظار، لايمكن أن تأكلها الغيرة وتنهش قلبها.. ولن تتبلل وسادها بالدموع أويجافيها النوم لأنه لم يعد لها تذكرة تمنحها حلما يزين سواد ليلها الطويل.. القهـــوة يـــاعزيزي مجرد سائل مصنوع من حبوب البن.. لايملك قلبا وعروقـــا مفعمة بالحياة مثلنا..

ابتسم كريم.. كالسحر.. لم تكن لابتسامته رابطا بـــالقهوة بـــل بسخونتها..

- أعجبتني كلمة عزيزي..

تفاجئني معايير جرأتك الزائدة والتي تفجر أحدى الحواجز فجأة ودون سابق أنذار.. ثم تتدارك شجاعتك لتهرب لرصيف أمن من عثرات الحب.. أو لعلك تحميني وجنتي من براكين الخجل..

- لم تخبريني كيف هي دراستك وما هو الجديد اليوم؟؟
- يفترض أن يكون اليوم حماس بكل المقاييس.. سنبدأ دراسة أسطورة بجماليون وكيف تناولها كمسرحية كل من بيرنارد شو وتوفيق الحكيم..
- وما هي قصته؟؟؟
- اتريد فعلا أن تعرف..
- بالطبع و لم لا!!
- حسناً.. اسمع ياسيدي.. باختصار بجماليون كان نحاتا يكره النساء ويراها كما يقال مخلوق ناقص.. ومع ذلك صنع تمثالا للمرأة المثالية في نظره.. وظل يضيف لها كل يوم مايزيدها جمالا.. ويزيده في الوقت نفسه تعلقا وهياماً.. لدرجة انه وقع في حب تمثاله وطلب من الآلهة ان تمنحها الحياة فكان له ما ا راد...
- اي انه احب امرأة شكلها بيديه.. تتوافق مع مزاجه وذوقه في النساء..
- تستطيع قول ذلك..
- تعرفين أن قانونا أخر في بلادنا يوافق مزاج بيجماليون.. وهو حين يتزوج الرجل بامرأة صغيرة في السن كي يشكلها على مايتوافق مع مزاجه وأهواءه..

أتعب ذلك الحديث الصباحي بتفاصيله حيائي، حين اقتحمه بجماليون بعد القهوة.. وانقدني رنين هاتفي.. فلم استطع الا الهرب من حديث كهذا.. كانت تتخلله النساء..

- علي أن انطلق الأن بلقيس تنتظرني في اول الشارع وإن تأخرت اكثر فسوف تلتهمني.
- وهل سأسمح لها بذلك..
- .....
- الى اللقاء... سنكمل حديثنا لاحقا عن بيجماليون...

تركته يحاسب في المقهى.. وانطلقت خارجا التهم الهواء.. فعباراته المفاجئة التي يلقيها دون انذار تدوى وتجول في نفسي مكدسة ساعات من الاحلام.. لكأنها السم والترياق في الوقت ذاته..

صعدت السيارة دون ان استطيع الكلام او حتى السلام..

- صباح النور.. مابك.. لماذا وجهك احمر هكذا.. هل أنتِ مريضه؟؟
- لا أنا بخير.. هيا فلنذهب..
- لن اتحرك حتى تخبريني.. مالذي حولك لجمرة هكذا أهو كريم.. أم لعلها حساسية من البيض الانجليزي..

نظرت لها بتحذير.. كانت تعرف تماما اني لست من النوع الثرثار، ولا الكتوم.. مابين بين أقع.. ولا أجيد الحديث ان لم يكن مزاجي يسمح بذلك.. أخبرتها مسبقا بقصتي مع كريم وزواجنا المعقود خوفا من... لااعرف من ماذا بالتحديد... ولعلها كانت مشجعي الاكبر لسرقة هذه اللحظات منه ومنها..

- اتعرفين.. لو كنت مكانك لقلبت الدنيا و لم أقعدها.. ولن يتمكن من العودة لتلك المار، لأني سأطبخها على نار هادئة..

- دعينا من الطبيخ الأن.. لمار مشكلته هو لا أنا.. ولن أسمح لنفسي بالتدخل.
- ولكنك بالفعل في الداخل.. انت زوجته بالله عليك.. رغم انه زواج مع وقف التنفيذ.. إلا أن عليك المكافحة اذا كنتي تريدين اتمامه..
- لا اعلم بالضبط اين اقع معه.. أو عنده.. فهو يبدأ صباحه معي.. وينهيه معها.. أحاول تجاهل الأمر لاكنه يلتهمني من الداخل.. لا أستطيع الابتعاد أكثر من هذا ولا الاقتراب ايضا.. الحلول كلها ليست بيدي..
- أووووه ياعزيزتي...

بكل حنان وضعت يدها على شعري لتواسيني على ما أظن وقالت..

- عليك يا صديقتي ان تأخذي دورة مكثفة في ممارسة كيد النساء..
- بلقيس أنت مستحيله...

لهذه الفتاة القدرة على أستحضار تلك الفتاة الشقية بداخلي.. انطلق معها الى حيث لا اعلم.. نتحدث بكل ما نعرف ولا نعرف.. وكأنها هبة منحتها دعوات امي رحمها الله..

ما أن وصلنا حتى قالت لي بجدية..

- مريم.. لا اريد أن اخيفك، ولاكن تلك الفتاة اصبحت تراقبك بطريقة غير عاديه.
- اجل.. تنبهت لذلك..
- مارأيك أن نذهب لمحادثتها..
- لا، لا.. ليس الان على الاقل.. ربما تشبه علي او امر كهذا..

- تشبه عليك، أكيد، فلو لم اعرفك لقلت انها شقيقتك بالتأكيد..
- ماذا؟؟
- ما بك.. انها تشبهك لحد كبير جدا..

نعم.. هذه هي.. انها صورتي في المرأة.. أنا هي من كنت احاول ان اتذكر بالفعل كانت تشبهني الي حد كبير.. قلت وأنا مذهولة..

- يخلق من الشبه أربعون...
- لأول مره أرى هذا المثل يطبق أمامي على الهواء مباشرة..
- هيا دعينا نذهب قبل ان تبدأ المحاضرة...

وانطلقنا وعيني تلك الغريبة تلاحقني.. لم اكد انتهي من المحاضرة حتى انفصلت عن بلقيس التي تشترك بأكثر من نشاط جامعي وكأنها تحتاج لأكثر من حياة حتى ينضب فيها نشاطها المتقد.. وها أنا ذا وجها لوجه مع تلك العينين وكأنها تنتظرني.. لم تتحرك من مكانها إلا لأجلي.. كانت ترتدي حجابا ازرق يتماشى مع قميصها المدفون تحت معطفها الطويل الذي يميزنا نحن المحجبات.. والذي نستبدل العباءة به عله يستر في نفسنا ذاك الفراغ الذي يخلفه تركها...

- مرحبا.. سعودية صح..
- نعم بالفعل.. اهلا بك..
- أنا فجر من الخبر.. أدرس في قسم الفنون والتصميم..

جاريتها في أسلوب التعارف الأمثل في الغربة.. نسبنا لا الى العائلة بل الى الوطن..

- مريم من القطيف.. علوم انسانيه..
- منذ فترة وانا احاول التعرف عليك.. إلا أنني لم استطع ذلك إلا اليوم

- لقد نبهتني صديقتي قبل قليل للشبه الذي بيننا.. وانا طـــوال هذه الفترة أتساءل أين رأيتك من قبل...
- تظنيننا نتشابه؟؟
- أعتقد ذلك!!
- إذن انتظري حتى تري أمي.. فأنت نسخة منها..

ألجمتني هذا المعلومة المقحمة وسط تعارفنا..

- ماذا؟؟
- لم اكن اراقبك فقط هذه المدة بل تماديت وربما ارتكبـــت جنحة ايضاً فقد كذبت على مسؤولة الطلبـــة.. وقـــرات ملفك وأسم والدك ايضا..

تنبهت جميع حواسي في تلك اللحظة.. الشبه ووالدي لايجتمعان الا في تلك المنطقة الا موجودة من الذاكرة..

- أعرفك بنفســـي مجـــددا.. أنـــا فجـــر ابنـــت عمتـــك الجازي..
- .....
- لم اعرف تفاصيل الموضوع الا قبل يومين فقط.. فقد ذهلت من مقدار شبهك بوالدتي.. حين رايتك وكأنني أراها مـــن كانت تسير بفارق ثلاثين عاما.. أعلم اني أفجر موضـــوعا قد لا تعرفين منه الكثير ولكن يتضح لي من ذهولك انـــك لاتعرفين شيئا.. الم يخبرك خالي بشيء..
- لقد توفي والدي وانا في الرابعة.. ولم اعرف اي شيء عـــن عائلته سوى انها....

هنا لم استطع ان اكمل.. شعرت بجـــرم الحـــديث عـــن هـــذا الموضوع.. العامل المشترك في جميع اشكالات الوطن.. الفتيل الصامت

الذي يفجر زوبعة الاتهامات بين الاطراف المتشددة.. اكملت عني فجر بتحرر ملحوظ..

- تقصدين أنها من مذهب أخر...
- نعم..
- حسنا لقد أقسم جدي على الجميع ان يقطعوا صلتهم بأبيك وأن لا يسألوا أو يتحدثوا عنه أبدا.. والتزم الجميع برغبته و لم يحاولوا.. لا اعرف اكثر من ذلك فقد اخبرتني به والدتي البارحة فقط.. واخبرتني بتفسير منطقي جدا للتشابه بينكما..
- ماهو؟؟؟
- ان والدك ووالدتي ليسا فقط اخ واخت.. بل كانا توأمين..
- معقول.. لا اصدق ذلك!!
- بل صدقي.. لا اعرف مايخططون له الان ولكني هنا امامك.. اقدم لك مايربطنا به الدم.. وما اتفق الماضي والاهل على تفريقه فلنجمعه نحن..
- وهل الموضوع بتلك السهولة؟؟
- و لم لا... و لم نصعب الامور.. الا يكفي ان لي ابنة خال لم اعرفها طوال حياتي.. لم اشاركها طفولة او مراهقة.. او حتى رساله..
- انت لاتعلمين مقدار الرعب الذي كانت تشعر به امي.. لدرجة انها اخفت عني كل شيء.. لم اعرف الا بعد وفاتها قبل عام ونصف.. حتى ان جدي اصر على زواجي من ابن خالتي حتى لا تتسبب عائلتك بمشاكل لا نعرف انواعها..

- تصورين عائلتنا على انهم وحوش او معدومي ضمير.. ابدا ليسوا كذلك.. انهم من اطيب واحن العـــائلات.. تربينـــا جميعا على مقدار من الحرية والثقة لاتكســـر الحـــدود ولا تلمس التقاليد بسوء...
- لا تلومينني بكيفية تصورها او حتى تخيلها.. فانا ببساطة لم اعرفها..
- ولهذا امد لك يدي.. والقرار راجع لك.. اتقفلين الباب ام تعبرينه لنا..
- .....
- فكري بالموضوع.. ووقفت لتنصرف وهي تخرج ورقة وقلمـــا من حقيبتها وتسجل فيها وهي تكمل.. اعرف أن هذه صدمة لك ولكن صدقيني انها كذلك للجميع.. هذا رقـــم هـــاتفي اتصلي في اي وقت.. وسأكون سعيدة بالحديث معك..

استلمت الورقة.. وراقبتها تغادر.. هاهي ذي عينة مـــن افـــراد عائلتي.. تمد لي يدها، وتعرض علي التعارف والقرب.. احيـــاء لصـــلة مقطوعة قبل ان اخلق على جسد هذه الارض.. فلم لا.. كل هذا الود والحنان الذي شعرت به يتدفق منها، يزيدني شوقا لرؤية ماوراء هـــذا الباب الذي اصبح مواربا..

"بلقيس لاتنتظريني.. اضطررت للعودة للمنزل.. أخبرك فيما بعد عما حصل"

طبعت الرسالة وبعثتها وحفظت رقم فجر في جهازي ثم همـــت على وجهي في شوارع مجهولة الهوية عندي.. أأخبر جدي أو كـــريم؟؟ ولم لا اقرر أنا.. ألست صاحبة العلاقة.. ألست أنا من يقطع الـــرحم الأن.. هاهي عائلتي تمد يدها فهل أرفضها؟؟

اتصلت على كريم.. شعرت بحاجتي اليه.. موجة عارمة من الكلمات تجتاحني.. احتاج لإلقائها على أذنيه.. لكنه لم يجب.. بالطبع بين الجامعة والمستشفى لن يكون له وقت لي بعد الصباح..

توجهت للمنزل.. فليس لدى هذه المدينة حضن يدفئني، أهذه هي الغربة التي يتكلمون عنها والتي يختنقون بها، حنين مفاجئ يأكل شعوراً بالأمان كان قد بدء يستوطن قلبي..

على باب شقتي تسللت ضحكات لمار العالية لصدري.. كانت ترقص أم تغني أم....

اجل كان كريم مشغولاً بالفعل..

"مرحبا فجر.. سعدت بلقائك اليوم.. واعذري ترددي.. فصعب على عالمي أن يتحد فجأة بعوالم أخرى في الوقت ذاته.. أتصل بك قريبا.. الى اللقاء..."

اراحتني رسالتي لفجر.. لم تعد يدها فقط هي الممدودة بيننا.. ورغم ذلك سيل من الدموع لا اعلم لما بدا ينساب.. حزن عميق يجتاح صدري.. ولا أحضان بالقرب مني لتخفف نوبة وجع واشتياق.. تتولد العبرة بالرغم مني لتثير زوبعة اهتياج ضد المجاعة والجفاف التي فرضتها ضد الحزن والبكاء.. غريبة هذه الكمية من أين تأتي ووكم هي عنيدة في فرض وجودها وانهمارها..

ظللت متكومة فوق مرتبتي.. أحتضن وسادتي.. ويقلبني الحنين على مهل.. لتعزف وحدتي لحن الغياب.. فهاقد اجتمع الثلاثة من بعد غياب دموعي ووسادتي والأحلام...

8

دق خفيف على الباب ايقظني.. وأنا غارقة في وسط العتمة، فحين نمت كانت الشقة تسبح في ضوء النهار.. انوار الشارع المتسللة عبر النافذة دلتني على مكان مفتاح الضوء.. لأصل للباب وأنا اعرك عيني..

- من هناك؟؟؟

جاءني صوت كريم... أناا..

نبرته الضعيفة أثارت هلعي ففتحت الباب بسرعه.. كانت يده تنزف بلون أحمر عجز عقلي للحظة أن يستوعب أنها دماء..

- ماذا هناك.. مالذي حصل؟؟ كيف جرحت؟؟
- أسئلتك كثيرة.. هل أجيب وأنا واقف هنا..
- أسفه.. تفضل...

جلبت عدتي الطبية بينما جلس هو على طرف الأريكة.. وجلست بين قدميه انظف الجرح.. وأنا أشعر بحرارة دمائه.. ونظراته.. كان بهما شيء مختلف هذه المرة.. أم لعل له أعينٌ في الليل تختلف عن تلك التي اراها في النهار..

دون ان ارفع نظري عن جرحه سألته:

- من اين حصلت على هذا الجرح..
- كم انت جميله..

هكذا أنت دون مقدمات تفاجئني بعبارة هنا وكلمة هناك.. تهز كياني وتقتحم لحظاتي.. دون ان تأخذك بي رحمة او شفقه، تحولني في لحظة لصنم، لتمثال من العاج لا يقوى على الحراك...

- وكأنك تراني للمرة الأولى..
- نعم.. لم أرك بدون حجاب منذ كنتي طفلة..
- اووووه.. لقد نسيته... أنا اسفة..

حاولت القيام لأخذ حجابي، ستري الوحيد الذي يفصل بين شعري وعينيه، الا انه امسك بمعصمي.. وحال دون نهوضي..

- ولم الأعتذار.. أتشعرين بارتكاب جرم دونه.. أم لأنني أنا من رأيتك بدونه.. أنسيتي اننا متزوجان ويحل لي النظر اليك..
- لا لم أنسى.. ولم أنسى ايضا ان هناك زوجة أخرى في الباب المقابل.. كما وان زواجنا ورقة ولا يحق لي أن اطالبك بشيء أكبر منها..
- مابها عينيك... أكنتي تبكين؟؟
- دعك من عيني وأخبرني مالذي أصاب يدك؟؟
- أنها لمار..
- ماذا؟؟
- طلبت الانفصال.. بل وطلقتها فعلا..
- متى؟؟
- قبل قليل.. اخبرتها انني لا استطيع الاستمرار معها.. كما وان تصرفاتها وأسلوبها غير محتمل.. التعامل معها يزداد صعوبة كل يوم..
- متى أخبرتها..

- قلت لك قبل قليل.. بعد عودتي من الندوة الطبية، قبل ساعة تقريبا..

كان غائباً طوال اليوم.. لم يكن معها..

- كانت تستفزني بوقاحتها متعمدة أثارة غضبي.. فما كان مني الا ان صفعتها فثار جنونها ووسط الاشياء المتناثرة اكتشفت انبولات المورفين لديها.. كانت هي السارقة.. كنت اشك بوجود امر ما ولكني لم أتوقع أن تصل لهذه الدرجة.. كانت غاضبة لدرجة أنها أحضرت سكينا من المطبخ لتطعنني.. تصوري.. وها أنا ذا..
- .....
- اعلم لايوجد لديك ماتقولينه.. زوجتي التي استبدلتك بها سارقة ومدمنة لا استطيع التفكير بكيفية الاعتذار منك حتى..

وخائنة.. ولكن كيف لي أن اضيف تفصيلاً كهذا دون ان تزداد الامك جرحا، دون أن تهتك رجولتك بخدشٍ أسببه أنا...

- كريم.. أنا أسفة..
- لأبأس عليك... ها أنت تضمدين جرحي.. وكنت أظنني الطبيب هنا..

وأقترب أكثر من قربه الاول ويده لازالت تمسك بمعصمي وعيناه تحرقني التهاماً..

- منذ قلت لك انها نزوة وكل شيء بيني وبينها اختفى.. حين احضرت لها الزهور كانت صورتك مرسوخة بذهني.. وصوتك يرن بأذني.. كانت حماقة عظمى أنني حاولت تنفيد ماقلته لي.. لم استطع الأدعاء، حتى هي لاحظت

ذلك.. الغريب أني لم أشعر بشيء تجاهها.. فقد انفصلنا تقريبا منذ ذالك اليوم.. اليوم نفسه الذي رأيتك فيه مع فراس.. لم أنم من هول الزوابع التي تفجرت في انحاء صدري...

أتشعرين بي يامريم.. الم تشعري باحتراقي وأنا بالقرب منك.. شوقي يخنقني كي أضمك وأنا بقربك.. ولا استطيع.. حاجز أنا من وضعه.. ولا اعرف كيف اهدمه لوحدي... منذ أخبرتك بنزوتي وأنا احاول ايصال حبي لك..

- تحبني.. أنا..
- نعم.. أحبك وبجنون.. كنت أراقبك كل صباح تتجولين بكتبك على المقاهي.. ولا تلاحظينني حتى.. ما كان مني إلا أن اقتحم صباحاتك وأشاركها بك..

هاهو ذا يعترف لي بحبه.. بعشقه وهيامه بي.. ألا زلت نائمة ياترى.. وماهذا الحلم الجميل الذي اراه.. دماءه لازالت في ذراعه ويدي ملطخة بها.. وعينيه تجولان في وجهي تراقبني.. لازال يتحدث ولا اصدق.. أي يوم هذا الذي تمتد لي به الايدي.. ماهذا الكرم الكبير الذي يلقاه يومي..

- امنحي زواجنا فرصة كي يكون حقيقه.. ربما بادلتني الحب يوما..

يطالبني بفرصه.. وهو لا يعلم اني امد له مئات الفرص لكي يغتنمها.. أُعبد أمامه مئات الطرق لكي يقطعها.. اضع الافتات أمام كل الأرصفة والازقة عله يلاحظها...

- سأحضر لك وسادة وغطاء كي تستطيع النوم...
- لاتهربي هكذا.. ارجوك.. فكري فيما قلته.

- ألم تسمعني.. سأحضر لك الاريكة كي تنام عليها.. هنا.. ألم تفهم..
- حسنا.. ربما أنا ذكي في الطب.. ولكنني أكبر الحمقى في ما يتعلق بالنساء.. لا اجيد اكتشاف الالغاز في كلامهم...
- أعرف ذلك.. ولكنني لا أجيد التصريح بما في خـــاطري.. وعليك أن تجد طريقة كي نلتقي بها في المنتصف..
- لم تخبريني.. لم كنتي تبكين؟؟ هل ظننتني كنت معها حـــين لم أجب على اتصالك؟؟

رأيته يفهمني.. ابتسامتي الخجولة ويدي الهاربة من طـــوق يـــده الملتهبة.. كان كافيا كي يفهم.. نام تلك الليلة علـــى اريكـــتي.. في شقتي.. وتحول الرواق لباب يفصلنا.. باب لا أستطيع تجاهله.. فنسيانه يؤرق شوقي لرضاه، واجتيازه يؤرق شـــوقي إلي.. لكـــم اصـــبحت المسافة بيننا قصيرة جدا.. لم استطع النوم في تلك الليلة حـــتى صـــلاة الفجر.. لم استطع الا ان استرق النظر اليه.. وأشبع عيني بمن أســـتطيع أن أعترف الان لنفسي بأنه.. حبيبـــي..

9

استيقظت.. ورأيته مستندا على الحائط يمد أذرعتـــه.. ويـــراقبني بعينيه.. شعرت بكل خلية من جسدي تستنفر رعبا.. ولم استطع منع الصرخة الخارجة مني والتي انطلقت كقنبلة قصفت اصداء الغرفة... لم اشعر الا وكريم يفتح الباب مندهشاً وانا مرتعبة اقف فوق السرير...

- مابك؟؟؟
- لا اعلم اين ذهب.. كان هنا قبل قليل..
- ماهو..
- عنكبوت.. عنكبوت كبير.. ضخم.. عملاق..

أخذت اجول بنظري بكل مكان في الغرفة وسط لهاثي، علني اجده، واذا بـــي اجد كريم يقف مسحورا على الباب يراقبني.. لا اعلم بالضبط ماجعله يبتسم هكذا أهو شعري المنكوش أم بيجامتي الطفولية..

- ألن تبحث عنه؟؟
- بلى.. ولكنني وجدتك..

كانت دقائق تمكن فيها من القضـــاء علـــى ذلـــك العنكبـــوت الضخم.. فحتى الحشرات هنا تختلف عن حشرات الوطن..

- أنت رسميا بطل في نظري..
- كل هذا الرعب بسبب عنكبوت.. الا زلتي تخافين الحشرات...
- إن الكلمة بحد ذاتها تسبب لي الحكة.. سأدخل لأستحم... أستأذنك..

سمعت ضحكات كريم وانا اتوجه للحمام بسرعه.. فلم ارد الوقوع بمزيد من الاحراجات اليوم.. وما أن انتهيت.. حتى قابلني بصمت غير متوقع... ومد علي جهازي وهو يقول.. "كان جوالك يرن عدة مرات وبإصرار".. رأيت الأسم واطفأته وذهبت لتحضير الفطور.. فلحقني كريم والغضب واضح في قسمات وجهه..

- هناك احد اخر في حياتك.. صحيح..
- من اين جئت بهذا الكلام؟؟
- من هو فجر هذا؟؟ أم تريدين مني الخروج حتى تأخذين راحتك للإتصال به..
- كريم.. انتبه لما تقول جيدا..
- انت انتبهي الى انك تحملين اسمي..
- أنا لا اقبل منك حتى مجرد التفكير بي بهذه الطريقة.. ثم فجر هي وليس هو..

صمت قتل الكلام بيننا.. أهذا بداية لما بعد لمار.. أم انه طبع في الرجال..

فطرتنا نحن النساء تدهشني في فهم تلابيب الرجال.. فقد رأيت في عينيه ما أشعل في صدري فتيلا من الخوف واللذة.. مزيج من المشاعر والحيرة يتناغم مع هجوم مباغة من الغيرة.. انه يجرب الان ماكنت اجربه طوال الاشهر الماضية من الاحتراق..

- أنا أسف لم اقصد ان....
- لابأس.. افهمك تماما.. ولكن إن كنت تريد أن نبدأ بالفعل حياتنا معا لابد ان نتفق منذ الان على الصراحة التامة.. أنا لا احب الشك ولا المشاكل..

- حسنا فهمتك تماما.. أعتذر مجددا... وأنا مستعد للتعويض عن جريمتي.. هيا ارتدي ملابسك.. هذا اليوم سأعوضك فيه عن كل الاشهر الماضية..
- لابأس، لاداعي لكل هذا انسى كل ماحصل..
- لا.. لابد من تعويضك.. ثم أنا أعتبر في اجازة مرضيه.. ألا تري ذراعي..
- وماذا عني..
- لديك محاضرة واحدة اليوم.. تستطيعين سؤال صديقتك عنها..
- وما ادراك؟
- أنا لا أنسى اي شيء تخبريني به..

منذ متى كنت تسجل تفاصيل ثرثرتي بذاكرتك ياترى؟؟ أثارة جملته اهتمامي لاغية كل ذرات الغضب المندفعة جراء شكه السابق...

- وأين سنذهب؟؟
- سآخذك في جولة فقط.. لا اكثر..
- حسنا.. بخصوص فجر.. لا بد لك ان تعـــ.....
- دعينا منها الان.. لا اريد ان نعيد افساد اليوم..
- اتصلت البارحة كي احدثك خصوصا عنها كريم...
- لابأس نتحدث عنها بعد قليل.. هلا خرجنا الان.. أكاد اموت جوعاً وأريد ان أتذوق قهوتك ومزاجك اليوم...

لم استطع المعارضة.. فهذه النسخة الجديدة منه تدهشني.. تلجم كلماتي وأفكاري.. تشل خيالي عن التحليق فلا يمكنه الوصول لسقف كريم الذي امامي الان.. كان مقهانا بعيدا على معدته اليوم.. فاخترنا

مطعما قريبا من شارعنا الذي نسكن.. وفاجأته فعلا حين طلبت شاياً بالحليب.. فهذا الصبح اشعر وكأني في القطيف.. يملأني كريم بها.. امتطي صهوة عينيه واسبح في شطأن بلادنا.. أراه وأرى به جدي وخالي وعائلتي بأسرها.. قربه يملأني بكل ما أحب فجأة كتيار مليء بشحنات من الألفه...

- مابك أين ذهبتي...
- أشعر وكأني في القطيف...
- كل هذا بسبب الشاي بالحليب..
- هههههه.. اخشى انك اصبحت تمثل لي الوطن..
- حقاً..

لا تطالب بتصريح أكثر.. هاأنا ذا اصاب بعدوى كلماتك.. يباغتني لساني فجأة بعبارة مسروقة من أفكاري.. فكت قيودها وتحررت على غفلة مني..

- كريم عليك ان تعرف الأن.. فجر هي.. ابنة عمتي...

أخذت اقص له حكايتي معها وأنا اتلذذ بنظرات القلق والاهتمام.. خوفه البادي يشبع فيني تلك الانثى الكامنة بداخلي.. المتعطشة لاهتمامه وتفاصيله.. لاستماعه لثرثرتها التي ولدت معها.. في غربتنا معا.. أحادثه.. وهي بيننا.. تتحدث بلساني وتحول بأفكاري.. تقلبها.. وتحرقها.. وتزرع فيني أفكارا جديده.. تقاوم نفيها الصباحي في ضوء النهار وتطالبني بتأشيرة دخول تسمح لنا بالعبور الى سجون لياليه...

- هذه خياراتك.. وهي عائلتك.. أنا لا استطيع أن اخبرك لو كنت مكانك ماذا سأفعل.. لأن خياراتي ستكون هنا مختلفة.. فأنا رجل..

- نعم بالفعل.. أنت رجل تملك كامل الحقوق لفعل أو لـ لافعل أي شيء.. أما أنا فمقيدة بالخوف.. مالذي يحتمل أن يفعلوه.. نحن متزوجان وكما قال جدي لايستطيعون ان يمسوني بسوء هكذا..
- كيف وجدتها.. أقصد فجر؟؟؟
- كانت في منتهى الطيبة.. حتى أن ترددي أشعرني بالخجل.. شعرت بنهم شديد لمزيد من الاخبار والمعلومات عنهم.. فكرة ان تكون لوالدي توأم.. معناها ان هناك شخص أخر يشابهه أكثر مني.. ويعرفه أكثر مني..
- سمعت أمي رحمها الله تقول انك تشبهين اباك جدا..
- نعم.. لم اخذ من والدتي الا لون بشرتها وسواد شعرها...
- نعم شعرك بسواد الليل يتماشى مع عينيك.. جميلة انت بكل مافيك..
- كريم.. توقف..
- ماذا.. أمن الخطأ ان اتغزل بزوجتي..
- .... لقد تغيرت كثير.. أهذا تأثير.....
- ماذا، تقصدين تأثير لمار.... ابدا.. لم أكن هكذا معها، شيء ما بدأ يكبر بداخلي منذ كنت اراك تخرجين كل صباح، شعاع من سعادتك كان يجتاحني، حتى انني بدأت بالشك، لماذا هذه السعادة، اي شخص في مكانك كان سينصب مأتما للبكاء على وضع كوضعك، وعلى زوج مثلي، اتعلمين انني لمدة اسبوع كامل كنت اراقبك.. اترقب زائرا ربما تنتظرينه مابين كتابك وقهوتك..
- معقول.. فعلت ذلك؟؟

- نعم.. اعترف لقد فعلت.. ثم حين واتتني الشجاعة تقدمت وفرضت نفسي على أفطارك وصباحك وقهوتك..
- ولمار؟؟
- كنا نبتعد كل يوم.. كانت كرسم جاهدت لإتمامه على الرمال.. وأتيت انت وامواجك لكي تمحيها من جوانب قلبي.. فكأنها لم تكن...
- ...
- لا تتعجبي.. كانت النساء في ذهني كصحراء بلادنا تماما.. بكل جمالها وقسوتها وشموخها، ولم يخبرني احد اني سأنظر لأحداهن كبحر عارم القوه.. هادئ الانفاس.. بين مد وجزر يؤرجحني.. يؤججني.. يثير مكامن العواصف بصدري.. كنت أظنني اتعثر بكِ.. وهاأنا ذا.. أجد نفسي بكِ..
- واااو.. إما انك تقرأ كتبا في الادب أو انك لست كريم الذي أعرفه..
- ولماذا تقولين ذلك..
- هناك كاتبة جزائرية أسمها أحلام مستغانمي تقول "إن أجمل مايحصل لنا لا مانبحث عنه بل مانتعثر به".. والان انت تبدو وكأنك تقتبس منها..
- لا بد وأنها قد احست بما أحس به الان.. هيا الان دعينا نذهب لاوقت لدينا..
- الى اين؟؟
- جولة في انحاء لندن.. ستعجبك صدقيني..

أن اتجول معه في الشوارع ممسكة بيده.. اخاطبه ويسألني.. أجيبه فيدهشني.. اتنفس معه الهواء نفسه.. ويجمعني به اكثر من صباح واكثر

من شارع... كل ما يحدث الان هو مالا يصدق.. ولكن أن تعجبني الجولة فهو أمر هين التصديق..

كانت بدية رحلتنا شارع العرب "ادجور رود" شعرت به كنسخة عربيه ذكرتني بالشارع الصيني في أمريكا كما نراه بالأفلام... تجمع غفير لشعب مغترب يتركز في شارع واحد، ليس اكثر من نسخة مشوهة من رائحة الوطن.. حتى المبخر العربي العملاق القابع خارج محل العود والبخور كان مشوها في ذلك الشارع الذي يدعي العروبه.. لم أحبه.. ولعل احساسي شابه احساسه في تلك اللحظة فلم نبقى بذلك الشارع أكثر من نصف ساعه... اتجه بنا كريم لاحد المتاجر العربية ليشتري كمية من الأطعمة المتنوعة.. دون ان اسأله ذهبت معه.. ثم انطلقنا لوجهتنا التي لم أكن أعرف.. صعدنا القطار وتوقفنا في محطة بستر فلج لنسير بعدها على بساط الريف الانجليزي.. لا اعلم كم ساعة مرت ونحن نسير ولكنها كانت كفيلة للقضاء على كمية الاطعمة التي اشتراها كريم... كان الغداء تحت شجرة عملاقة تطل على مرعى كبير.. اكتشفت هناك مقدار ما امتلكه من قدرة في مجاراة كريم في معلوماته وافكاره، بل واختلف معه ايضا في البعض من أرائه، استولت علي في تلك اللحظات "أنا" الاخرى لتعينني على مجابهته.. لتعينني على الاستحواذ عليه.. من اين تظهر هكذا.. وكأنني لست أنا.. وكأنها ليست أنا.. تعرف تماما ماذا تقول ومتى لاتقول وكيف تقول.. تبهرني بها.. وبي... تمسك يدي وتمدها ليده.. تذكرني دوما بحلمنا معا.. حلمنا الذي كان دوما هو..

قد كان يوما حلما.. واضحى سرابا.. وهاهو ذا واقع يجلس أمامي.. يؤانسني، ويطعمني.. يحاكيني، يمازحني.. حتى انه يخطط لغدٍ معي..

أنا وأنت هنا معا.. وبيننا أنثى أظن بأنها أنا.. فإن كانت هي أنا.. فأين ذهبتُ أناي الأخرى.. أين ذهبت تلك الطفلة التي كانت تسكنني قديما.. أين ذهبت بألعابها وكتبها وأحلام يقظتها البريئة أشعر بها تنزوي في ركن بعيد من ذاكرتي.. تنظر لي وتهمس.. أطمأني لن أذهب أبعد من ذلك.. أذهبي أنت وأبحثي عن حلمنا معا.. عن غذنا معا.. عنكما معا..

انظر له في صمتنا.. فيهاجمني أمسي ويومي وأنثى بيننا... زخم من الافكار يتقاذفني في لحظات صمتنا حتى يأخذنا مجرى الكلام.. فتشحذ أنثاي لساني.. ليطاوعها في سكب التعاويذ على قلبه هو..

هل تعلم أمي عن هذه الأنثى التي ولدت من رحم الهوى.. لابد وانها تعلم فقد ولدت أنا من رحمها.. فلو كانت هنا الأن فهل ستخبرني بسرها؟؟.. وهل ولدت من رحم هواها أنثى كأنثاي ياترى؟؟

تطاولت أفكاري في فرض نفسها على لحظات يمتلكها هو.. فما كان منه إلا أن يقاطعها..

- أين تسبحين بأفكارك الان.. هل ستخبرينني؟؟
- أتريد أن تعرف؟؟
- أتريدينني أن أعرف؟؟
- لا أعلم كيف اخبرك بشيء لاأزال أجهله.. لا أزال أكتشفه..
- جربيني... فلدي شهادة متواضعة في الطب.. رغم أنني أشك بقدرتها على مساعدتي فيما يتعلق بفهمك..
- هذه هي مشكلتي.. انها فهمي..
- لكني لا أعرف شخصا اسمه فهمي..
- هههاهههااي.. كم أنت ظريف...

- نعم اصبحت ظريف منذ عرفت الطريق لابتسامتك والأن أخبريني ما الذي لا تفهمينه؟؟
- لا أفهمني.. حين أكون معك أشعر بأنني شخص أخر.. وبدل أن أتعرف عليك.. أجدني أتعرف عليَ..

ويسقط في الصمت كل الكلام كما يقول فاروق جويده.. لحظات مرت وأنت تنظر لي وأنا أتساءل هل فهمتني أم أنك تفكر بعرضي على طبيب للأمراض العقلية.. هل أنا من تريد فعلا أم أن صراحتي المولودة حديثا قد بدأت تبعدك أكثرعني.. الى اين تريد أن تكون حدود الصمت.. وأي حدود من الكلام ترضيك أكثر.. اتعجبك الأنثى التي ولدت بيننا أم تعجبك أنا.. تلك الأنا التي كنت أفهم.. التي كنت أعرف ماتريده وما تحبه.. وما تستطيع أولا تستطيع أن تفعله.. ماتقوله وما لاتقوله.. ما تقصده وما تتعثر به..

- اتصدقين لو قلت لك.. افهمك تماما.. بل واشعر بك.. فأنا ايضا اشعر بأنني شخص أخر.. شخص كنت أبحث عنه دون أن ادري.. ووجدته فقط حين وجدتك..
- أهي حالة تصيب الجميع أذن؟؟؟؟
- لا اعرف تماما.. ولكن اعرف تماما أننا نتغير.. كل يوم نتعلم شيئا جديدا يلغي جهلنا به البارحة.. فلا نعود من كنا..
- لا بد ان ارى شهادتك بنفسي، هل ستأخذ الدكتوراه في الطب أم في الفلسفة؟؟
- ماذا افعل.. لقد ضيعتني.. بالأمس كان البروفسور يتحدث عن الاعصاب والشرايين.. وأنا غارق في تحليل بيجماليون..
- حقاً!!

- لك أن تتخيلي.. ولا تضحكي حين اقول لك أنني أخذت أفكر كيف لـــ بيجماليون أن يحب حجرا.. ويترك مئـــات الشرايين والاوردة التي تضج بالحياة داخل أمرأة تجعله يضج بالضياع وهو يملك عنوان شارعه.. ويقف علـــى ارضـــية منزله.. ويهتف لحرية عشقه..
- بيجماليون لم يكن يحب صنف النساء...
- بل لم يكن يعرف من انت من صنف النساء..
- كريم أحذرك.. كلماتك تضيعني.. وأنـــا لازلـــت ابحـــث عني..
- سأجدك أنا.. فلا تقلقي..

و لم أعد اقلق.. فما بيننا قد ولد بالأمس ووصل اليـــوم الى ســـن البلوغ.. مابيننا قادر على السير فوق ارصفة الحياة.. قـــادر أن يقطـــع وحده إشارات المرور.. قادر على تربية ذاته وذواتنا معا.. قادر علـــى إذابة قطعة من الجليد تفصل بيني وبين أنثاي التي تسكنني.. حتى لا اجد فرقا بيني وبينها... حتى أعرفها وأعرفه معها..

انطلقنا بعدها لاكتشاف بستر فيلج اوت لت.. التي اتضح لي انها مجمع تجاري في قرية بستر على شكل بيوت متفرقـــه لمحـــلات عالميـــه كـــ ديور وغوتشي وفالنتينو بأسعار مخفضة.. هذا المكان هو عـــلاج فعال لغالبية النساء المصابات باكتئاب الملل في بلادي.. نستطيع اضاعة ساعات وساعات لمجرد التفرج على هذه المحلات.. وأضاعة ســـاعات أخرى حين نبدأ بالشراء.. لا أظن كريم يستطيع أن يتحمل هذه الصفة في جنسنا نحن النساء، فكانت الأنثى بداخلي تحذرني.. فيـــتحكم بنـــا عقلي متغلباً على شهوة التبضع التي تفتك بصنفنا.. ورغم ذلك خرجنا محملين بالأكياس..

وعدنا معا.. فبعد الغروب يبدأ اليوم بالإنتهاء في هذه البلاد.. لم يكن كريم يحب البقاء خارجا بعد المغيب.. لم يكن من محبـــي السهر.. فهو مرض كالإدمان تماما يحرم الجسد من اكسير الليل.. ما أن تجربـــه حتى تدمنه.. فيتمكن منك.. ويجعلك تغوص في ساعاته.. وترتكـــب معصيتك الكبرى فتخون الشمس حين تنام في ثنايـــا الصـــبح وعلـــى شراشف النهار.. وحين أكتشفت هذه الحقيقة.. أحببت صـــباحاتنا.. فقد كانت تنتمي لقوانينك في الوفاء...

على باب العمارة حيث نسكن كانت لمـــار.. وحقائبـــها تمـــلأ السيارة.. ويدها تصافح يد رجل غريب.. ما لبث أن غاب في طريقه.. بينما وصلت لنا نظراتها بابتسامة مليئة بالأزدراء.. وغابت هي الأخرى بعدها..

كان يؤذيني كونها المرأة الأولى قبلي.. والتجربة الأولى قبلـــي.. والضياع الأول قبلي.. رغم أن كريم ظل يقول لي انني الأولى وذلـــك مثبت بالأوراق الرسمية.. وأنها كانت نزوة الغربة فقـــط.. لم أســـتطع البقاء في شقته حيث كانت هي تسكن.. فظللت مكاني.. وظل هو.. حتى موعد رجوعنا الى الوطن في أجازتنا القادمة كما أتفقنـــا.. كـــان لابد لنا من لحظة تتمم هذا الزواج المبتور.. المعقود على الورق.. كي نكون كما يجب لنا ان نكون.. زوج وزوجة.. وكلانا كـــان علـــى انتظار.. للحظة قدر....

10

رغم كل ما يجمعنا معا.. كريم وأنا.. كان لكل منا حياة منفصلة تماما عن حياة الآخر.. حياة تكمل كل منا بعيدا عن الآخر.. كان لـــه أبره ومشارطه وغرفته البيضاء المعقمة.. وكان لي جامعتي وكتبـــــي وشلة من النساء تجتمع في نون بلقيس.. بلقيس التي اعطتني الصـــداقة والاخوة والامومة.. اعطتني مساحة واسعة من الثرثرة الـــتي امارســـها معها دون قيود.. دون خوف من نظرة استهزاء او حكم جائر في حق كلماتي المختلة.. نتشارك معا في شوقنا للأم التي نفتقد.. فكـــل منـــا مشبعة بذاكرة لاتستطيع مشاركتها مع من حولها خوفا من نكز جراح الذكرى لديهم.. والتي قد لاتزال موجعه.. إلا ان نوناً أخرى انضمت لبلقيسي.. أثارت بدمائي نزعة لمعرفة تاريخه وبقاياه التي لا اعرف والتي تسكن هناك في بلدي على بعد حاجز ملغوم من الاعراف...

بعد اسبوع تقريبا من رحلتي مع كريم.. كانت فجـــر وزوجهـــا يجلسان على المائدة معنا.. يشاركاننا العشاء في شقة كريم.. كان يبدو وضعنا في شقته طبيعيا أكثر.. ومقبولا أكثر.. ومرهقاً أكثر.. إلا أنـــه واجهة ممتازة لصورتنا معاً.. اتضح لي أن زوج فجر يكون ابن عمـــي الأوسط عبد الرحمن.. والذي يكبر والدي بـــ ست سنوات.. أستطاع كريم الحصول على اهتمامه وإلغاء الرسمية التي لم تتمكن من الصـــمود امام روابط الدم.. كما وأن الطعام العربـــي المطهو في الغربـــة يعـــد احتفالا تلغى في وجوده العراقيل.. تكلمنا في تلك الليلـــة مطـــولا..

وعلمت عن عائلتي الجديدة معلومات أكثر.. لدي ثلاثة أعمام وعمة واحده... عبد العزيز الأخ الاكبر والاب البديل لجميع العائلة.. وعمي الاوسط عبد الرحمن.. تليه عمتي الجازي تؤام والدي.. ثم عمي الاصغر فيصل الذي يستقر بأمريكا حاليا... وهناك ايضا.. جدتي...

هي من أتوق شوقا لأعرفها.. منقذة أبي.. كانت في العقد التاسع من العمر.. تعيش في منزل العائلة.. منزلها هي.. لم ترضى بالسكن مع اي من ابنائها.. وفي يوم اجتماع العائلة كان الكل يحضرون لبيتها هي.. وزيارتها هي... والتواصل مع العائلة تحت جناحها هي.....

تفاجأت حين عرفت انها كانت معلمة في احدى اقدم المدارس.. فقد كانت تنتمي الى أوائل الدفع المتخرجة من الطالبات السعوديات الملتحقات بالجامعة والتي أسسها الملك سعود لتعليم الفتيات انذاك.. كانت فجر تتكلم بفخر الانتماء لهذه الإنسانة التي كافحت من اجل حريتها في التعلم وقاومت ماكان سائدا في عائلتها من قوانين القبيلة، كي لا تجد تلك القوانين طريقها للعائلة التي ستُبنى بين يديها...

عرفت كيف توازن بين بيتها واولادها وبين طموحها منذ اكثر من ستين عاما.. في تلك الحقبة الزمنية التي تسبق وجودنا ووجود أباءنا على جسد هذه الارض... تلك السنين الحالكة الظلمة والتي كان يتراءى للبعض منهم ان التعليم للفتاة ينتمي لصنف المحرمات.. وأن القلم في يدها كالخنجر بيد الرضيع.. لابد ان يجرحه قبل أن يجرح الأخرين.. يحرمونها من المعرفة بحجة الخوف عليها فيسحبون بساط الحرية من تحت اقدامها دون أن تعي حقوقها.. دون أن تدرك أن ما لها يتحول اتوماتيكيا الى ما عليها.. عليها أن تفعل هذا، وان تطيع ذاك.. وأن ترضخ لواقعها مع من كان ومهما كان.. وفي النهاية تجد نفسها

فارغة اليدين والرأس مما يفترض أن يكون لها.. فهي لاتعي من حقوقها سوى ماعلموها أياه.. وليس لها أن تطالب بالمزيد، فـــذلك اجحـــاف وخروج عن تعاليم الملة وتعاليم الدين الذي سيروه تحـــت أهـــوائهم، وفسروه بما يخدم مصالحهم ومخططاتهم.. كي لايؤثر علـــى نســـائهم الأليفات القانعات.. الاتي يقرن في بيوتهم.. كـــي لايفـــتحن أبـــواب عقولهن.. كي يمتنعن عن التفكير من وراء ظهور الاوصياء بدون إذن.. كي لا تتمادى نوايهن في التحليق دون حراسة أو قيد...

بدأت خيوط من الأعتزاز والفخر تتسلل الى نفسي رغما عـــني.. أحببتها.. بل اشتقت اليها.. وشعرت باشـــتياقي يجـــرف خيـــالي الى أحضانها.. الى حنانها.. الى رائحة ابـــي الممتدة عبر خلايا أمومتها...

على حين غرة اشتعلت انثاي بالغيرة تجاه فجر.. ليس لأنها تعرف الجدة.. بل لأنها كانت تسترق النظر لـــ كريم أثناء حديثنا... إعجابها كان واضحا، بل كان مزعجا احسست بوابل من الشتائم يمر برأســـي يستحيل أن ينطق بها لساني ولو بعد ألف عام.. لكن كان يسهل على من تعيش بداخلي أن تفجرها داخل براكين غضبها المتقدة..

كانت لاتحب أن تنظر اليه أحداهن.. او تعجب به الاخـــرى.. تتماهى في مزيج مختلف من الغيرة لم أعرفه قبلاً.. قد تغريـــه ابـــواب اخرى لعبورها.. قد يعجب بهن كما أعجبه أنا ومن كانـــت قبلـــي.. مالذي يجعلني استمر أنا دون غيري؟؟ ومالذي يضمن السلامة لـــثقتي كي لايهتكها الألم؟؟ تذكرت فجأة كلمات خالد الباتلي..

الأنثى.. دائما حبلى بالقلق..
وتتوكأ على حلم...
وتتساءل.. ماذا بعد....

يالها من أنثى مجنونة تلك القابعة بنفسي والحبلى بالقلق.. اصبحت من وراء نظرات امرأة أخرى لم يلاحظها هو.. أحقد عليه.. وأغضب منه بالرغم عني.. مشاعر أُنثاي تطغى على عقلي.. تبعثرني بلا منطق.. وتقلبني بين مكامن الفوضى.. حيث ازداد احتراقا.. ازداد اشـــتعالا.. وأتطاير مع هشيم الغيرة... ثم أتساءل ماذا بعد....

كانت كل منا تصلح من حجابها في غرفته.. غرفة لمار.. حيـــث كان هناك سريرها معه.. ومرآتها وأدراجها.. كان كل ما فيها يخنـــق ذاكرتي.. يصفع مخيلتي.. ويصيبني بالتهاب في مفاصل ثقتي..

أخرجني من اختناقي سؤال فجر..

- هل أنت سعيدة مع كريم..
- بالطبع.. لما تسألين..
- حين أخبرتني أن زواجكما تم بسبب الخوف من عـــائلتي.. ظننته كبيرا في السن أو لا يعجبك.. لم أكن أتوقعه شـــابا وطبيبا..
- وزوجك ايضا يبدو طيبا ولطيفا.. هل كان زواجكما عـــن تخطيط ايضا..
- لا.. تستطيعين القول بأنه شبه قصة حب..
- كيف؟؟
- تعرفين كيف هي العوائل.. نجتمع كل اســبوع في بيـــت العائلة وما بين الرجال والنساء.. كان هو يصل إلي دوما.. يثير غضبـــي ويستفزني.. وكلما كبرنا كان غضبـــي يقل واهتمامي يزيد.. ثم اصبحت اشتاق لرؤيته ولو من بعيد.. ثم..
- ثم ماذا.. كيف تم الزواج.. اكملي..

- حسنا.. طلبت مني جدتي بناءً على رغبة منه أن أزورهـــا.. وسألني إن كنت أقبل بالزواج منه قبل أن يفاتح والـــده في موضوعنا كي لاتكون هناك حساســـية بـــين الأخـــوة إن رفضت.. في وقتها كانت جرأته وحتى تهوره يثير في نفسي الفرح..
- والآن..
- الآن لا أعلم.. هناك برود تسلل بيننا.. بين روتين دراســـتي وأعماله ساعات كثيرة من البعد.. وكأنه قد تغير..
- ربما هو أيضا يفكر بالأمر ذاته...
- ماذا تقصدين.. انا لم أتغير..
- لا يوجد من لايتغير.. كما وانه حين يسير خطوة للأمـــام يتوقع منك أن تكوني بجانبه لا وراءه.. واذا ظل كل منكما يتجاهل الفجوة الصغيرة المولودة فيما بينكما فأنها ســـتكبر يوما دون أن تدركا..
- فماذا نفعل في مشكلة ليست مشكلة تقريبا..
- بل هي مشكلة لابد من كسرها.. لابـــد مـــن وأدهـــا في بدايتها.. لاتنتظري منه ان يفاجئك فاجئيه أنت.. كـــوني بالصورة التي تريدينه هو أن يكون.. لاترفعي من ســـقف توقعاتك إن لم تجاريه في توقعاته..
- هل تدرسين على يد طبيب نفسي؟؟
- لا.. أدرس على يد أوبرا وينفري...

لكل امرأة محراب للجنون تمارس فيه هلوسة العشـــق الأنثـــوي العقيم، الذي يتناسى وجود الرجـــل في معادلـــة الحـــب والحيـــاة.. فـــ للرجل نصيب مضاعف من نصيب الأنثى في نحت هذه المعادلـــة،

ومعا يتمازجان ويتقولبان ليجعل كل منها الأخر على قيد الحب، كما يجعلنا الماء تماما على قيد الحياة، صيغة الماء الشهيرة H2O.. تشابه تماما قوانين الطبيعة الإنسانية... جزيء من الاكسجين يقابل جزيئين من الهيدروجين فيشكلان الحياة.. وأنثى واحدة بين ذراعي رجل.. فيتشكل الوطن..

وبينه وبيني.. كانت الأنثى المشتعلة بداخلي.. والتي لابد لي من ترويضها وتعليمها كيفية امتطاء صهوة المنطق وقوانين الجذب والدفع عند النساء.. رغم أن فطرتها في المعرفة تملأني بالعجب.. بنودها الخاصة في التغافل والتحايل واضحة لي، وكأنني أحفظها عن ظهر قلب.. كل ماأريده هو أخماد براكينها التي لا تهدأ، علها تكف عن التهامي بنيرانها، علها ترفع أصابعها قليلا عن قلبي المنصهر برغوة القدر...

بين اوقات الفراغ في الجامعة كانت فجر تتسلل للإلتقاء بي.. واعطائي جرعة من ذاكرتها عن العائلة التي تجمعنا معا.. راميةً كل من رمقنا باستنكار بـ وابل من اللامبالاة.. تحيك قيوداً جديدة تربطنا معا.. قيود لادخل لأبجديات العالم بها.. لا دخل لأعراف العائلة بها..

كانت مصابة بوعكة حنين.. تتملكها مشاعر الغربة التي اصبحت كالفيروس يأكل الرابط الذي يجمعها بزوجها.. والذي وجدت علاجه معنا.. فالغربة لاتكون إلا إن سمحنا لها أن تكون.. ثم من ذا الذي يستطيع الاصابة بداء الغربة وحوله بلقيس..

بلقيس هدية الرب الينا نحن النازحين باسم العلم لهذه الارض.. انطلاقها في استخدام كل انواع الحديث.. وكل أشكال الصراحة يذهلنا.. فجر وأنا.. فقد اتينا من بقاع تبتر فيها الافكار والاحلام.. فلكي تخطو لابد من أخذ الأذن.. ولكي تكتب لابد من أخذ الأذن..

ولكي تفكر لابد من أخذ الأذن.. أما بلقيس فكانت تفكر.. تقـــرر.. تنفد.. تعدو.. تقفز.. وتسوق سيارتها دون ان يمسها سوء.. كانـــت حريتها تغرينا.. الا انها اعترضت حين واجهتها فجر بها..

- من يقول لدي حرية مطلقه؟؟؟
- حسنا انت حرة بفعل ما تشائين في الوقت الذي تشائين في اي مكان تشائين دون أخذ الأذن أو الرجوع لأحد...
- ذلك لان عائلتي قد أعطتني مقدارا كافياً من الثقة والحرية.. لاتسمح لي بارتكاب الأخطاء.. ثم هـــم يعرفـــون جميـــع تحركاتي وخطواتي فأنا لا أخفي عنهم شيء.. وفي اللحظـــة التي اخفي بها شيئا سأعلم أنه خاطئ لامحال...
- أرأيتِ.. أنتِ تقررين..
- وأنتِ أيضا تملكين القرار.. ولكنك من يضع لنفسه حاجز وهميا.. الخوف من اجتيازه يلجمك.. ترهبك كلمات مثل الإذن والطاعة.. رغم أنها حين تفكرين تصب في مصلحتك لاضدها..
- وكيف ذلك...
- حسنا.. لا يمتلك الجميع عائلة متفهمـــه.. والـــبعض قـــد لاتسانده عائلته في اي خطوة يخطوها وربما كانت ضـــده.. عن نفسي قد تعلمت أن أسأل عن كل شيء يتـــراءى لي أستفهام أمامه.. تعلمت أن أفكر وأحلل.. وأسال عن تلك الأفكار التي تهاجمني.. واذا ماكانت تحليلاتي منطقية أم مجرد هرطقات.. وسط كل أفكاري واستفهاماتي كنت أضـــمن ان هناك من أستند عليه.. سيجيبني.. سينقذني.. ولايمكـــن ابدا أن يتخلى عني حتى وإن كنت مخطئه.

- اتفق معك.. العوائل المتفهمه تفعل هذا.. بينما هناك عوائل لا يستطيعون السماح لـــك بـــالتفكير.. ولـــو فعلـــت.. فسيحاسبونك.. ويعاقبونك.. وقد يقتلونك..
- نحن نتكلم هنا عن الحرية المباحة أم عن الإجرام..
- استطيع أن أكون حرة كي أفكر نعم.. ولكن ماذا عن كل شيء أخر.. انتِ لم تسمعي عن حوادث بلدي وقضاياه.. ابسط مثال أنه لايمكن للمرأة أن تفعل أي شـــيء دون ولي الأمر.. تريدين أن تتوظفي أحضري أذنـــا.. تريـــدين أن تسافري لابد لك من مرافق.. تريدين أن تخرجي لابد مـــن سائق.. لكي تفتحي لك حسابا بنكياً، ولكـــي تتزوجـــي، ولكي تدخلي المستشفى، ولكي ترثي، ولكي.. ولكـــي.. ولكي.. كل أمورك تحتاجين لتنفيدها وسيط يســـمى ولي الأمر، الوصي.. يقولون النساء عندنا يعاملن كالملكات وفي الوقت ذاته يضعوننا في قوالب ناقصات العقول...
- لو أتيح لي من يقوم بجميع احتياجاتي.. فلم لا؟؟؟
- ولو كان من سيقوم بجميع احتياجاتك ليس أهلا لـــذلك.. وإن كان يقوم بها بعد سنين من طلبك.. وأن كان يمنعـــك من تنفيدها أصلا.. فماذا ستفعلين؟؟؟
- اممم... أظنني لن أسمح له بذلك..
- وإن كنتِ لاتملكين أمكانية السماح أو الا سماح.. بلقـــيس ياعزيزتي.. قد من الله علينا بعوائل متفهمه وحياة مســـتقرة ولكن ذلك لايلغي وجود الأخـــرين.. أولئـــك الـــذين لا يعرفون الاستقرار أو الامان تحت وصاية أولياء الأمر..
- يستطيع الجميع الجهاد في سبيل نيل الحرية والـــ...

- عزيزتي هذه مجرد شعارات نواسي بها بعضنا البعض.. لدي صديقة من ايام المدرسة على قدر كبير من الثقافة والجمال ذنبها في الدنيا أن أخاها الطماع ولي أمرها.. لم يسمح لها بدخول الجامعة... ولم يسمح لها بالزواج خوفا من أن تطالب بإرثها... فظلت واقفةً مكانها تراقب جريان السنين... وهناك فتاة أخرى زوجها والدها من رجل في الخمسين من عمره فقط لأنه احدى هوامير السوق وذلك بعد أن اشبعها ضربا لأنها تجرأت وقالت له لا...
- أشعر بالقشعريرة تنتابني.. فليحفظك الله ياأبي.. وكأنك تحكين كابوسا..
- مثلما هناك لون ابيض هنالك أسود.. وما بين هذا وذاك درجات عدة من الألوان.. وجود أحداها لايلغي الأخرى ابدا... نحن لا نعيش وحدنا.. ولا نسير بأعين مغمضة.. اراهنك أن جهاد الحرية التي تنادين به هو من سيثير الزوابع في البلاد.. فالشعب أصبح اكثر علما.. أصبح قادر على التفكير والتحليل واتخاذ القرار.. مثلك تماما..
- ورغم ذلك هو في مشكله؟؟!!
- نعم... مشكلة الشعب أنه ليس أسرة واحدة.. لا ينقذون بعضهم ولا يتكئون على بعضهم.. ولا يجيبون حتى على أسئلة بعضهم...
- يبدوا أن عائلتكم تعاني من هاجس الفلسفة في الحياة.. يا الهي ساعدني، كنتُ في واحدة أصبحت في اثنتين..

تعالت ضحكاتنا، ورغم أني كنت استمع لهما في صمت، الا أن كلمات فجر كان لها دوي صاخب في نفسي، ياترى ماهو لونها، وما

هو لوني، ماذا كان لون أبـــي، وهل ينتمي أحد هذه العائلة للطـــرف الحالك من السواد، واي بياض يحملون في قلوبهم ياترى؟؟ هذا العـــالم الذي تحكي عنه فجر كان خارج بيتي، بعيدا عن حياتي، في بقاع مـــن بلادي، وأن لا أراه لايعني عدم وجوده، مجرد التفكير فيه كان يرهـــق النفس ويملأها قهرا وحقدا، فليس بيدي ما افعله لكي أساعد أو أغـــير منه شيئا.. تلك المدينة الفاضلة التي يحلم بها كل منـــا مجـــرد وهـــم.. لايمكنها أبدا أن تتحول لواقع..

العجيب في عالم النساء قدرتهن الهائلة على الانتقال في الموضيع من هوة سحيقة كهموم الشعب الى اشهر دور الازياء.. لطالما كان هـــذا الامر يوتريني، فلا أستطيع الانتقال من محطة لاخرى دون المرور بمرحلة الإفاقة، فاستأذنت من فجر كي أذهب مع بلقيس لمحاضرتنا التاليه.. إلا أن لها أخباراً أخرى اختارت هذا اليوم لتزحمني بها...

- قبل ان تذهبـــي مريم.. اريد أن أخبرك عن وليد...

وبفضولها القاتل، نيابة عني سألتها بلقيس: من وليد؟؟؟

- أنه ابن خالي عبد العزيز، علمت اليوم أنه هنـــا في لنـــدن، أنتبهي قد يفاجئك بأي لحظه فلا أحد يعرف ما الذي يدور بعقل هذا الرجل..

سألتها بقلق:

- ولماذا تقولين هذا.. وماعلاقته بـــي؟؟
- والدتي قد فاتحت خالي بوجودك وبوفاة والدك ووالدتك.. لا تتوقعي منهم ان يتجاهلوا هذا الخبر فأنت مـــن العائلـــة بالنهاية... وأمي ترغب برؤيتك وبالتأكيد جدتنا ســـتحب ذلك ما أن تعرف..
- ألم تعرف بعد؟؟

- لا.. فهم يخافون من وقع الخبر عليها فهي كبيرة في السن.. كما وأن لا خبر لها عن ابنها منذ خرج من المنزل.. هي لاتعرف حتى بوفاته..
- وماذا عن هذا الوليد.. ماهي مشكلته كي تحذرينني منه!؟؟
- وليد ياعزيزتي هو المتطفل الرسمي في العائلة، عين نفسه وصياً علينا دون أن نعلم، يريد أن يشعر أنه كبير العائلة بأي طريقه، كما وأنه تسبب بمشاكل مادية أكثر من مره، لا أعرف الكثير من التفاصيل ولكن وجوده الأن ليس محض مصادفة بالتأكد..

سألت بلقيس بخبث واضح رافعة حاجبها الايسر..

- يبدو انك لا تحبينه!؟؟..
- تريدين الصراحة.. لا.. فقد حاول تخريب زفافي فقط لأنه كان دائم الشجار مع زوجي، حتى أنه حاول التأثير على والديَ بالكذب..

فتملكني الفضول بدوري لأسال عن كبيرهم..

- ووالده..
- خالي عبد العزيز طيب جدا رغم قوته وحزمه، كما وأن اولاده الاخرين ليسوا كوليد بتاتاً، ربما لان امه مختلفة، فقد توفيت والدته أثناء ولادته.. ولكن زوجة عمي طيبة جدا حتى أنا لم أعرف أنه ليس بإبنها إلا منذ وقت قريب..
- فماذا تتوقعين أذا...
- اتوقع كل شيء.. أولا شيء.. كما قلت لكِ نحن لسنا على وفاق معه وعلمنا بوجوده من بعض الاصدقاء.. اعطيكِ

العلم فقط كي تعرفي مايحصل حولك.. لا لكي تخافي..

- لا تقلقي.. وشكرا لحرصك علي..

كانت بلقيس تستمتع بهذه الحكاية التي يتجسد ابطالها أمام عينيها.. وتمارس تفاصيلها وسط حضورها.. تركتنا فجر.. وسرت انا وبلقسي حيث القاعة....

- تعلمين حكايتك لا تتكرر كل يوم.. علينا أن ننتبه من وليد هذا قبل ان يباشر بالهجوم..
- بلقيس حبيبتي اي هجوم هذا.. لا تكبري الموضوع.. ربما كانت صدفه..
- وربما لا.. الواضح أن فجر لاتحبه بسبب التوتر بينه وبين زوجها..
- أظن ذلك..

أعتقت كل تلك الأفكار ولفظتها خارج رأسي كي اتمكن من متابعة اليوم بهدوء، وجلسنا في القاعة حيث دخل الاستاذ الجديد.. عُين حديثا واستلم هذه المادة لان الاستاذ السابق قد اصيب برصاصة عشوائية أثناء سرقة أحد المتاجر والذي صادف تواجده هناك، حيث تواطأ سوء حظه مع التوقيت.. فالصدف تلعب دورها في تغير مسار حياتنا ولو لم نشاء.. ليس لنا ان نمنعها وليس لنا ان نرجع بالزمن ونعيدها فنصحح ما اقترفته بنا..

بدأ الأستاذ بالدرس بعد ان اعطانا نبذة مختصرة عن نفسه لم تتجاوز الدقيقة.. ولكنها كانت كفيلة لـ تغرق بلقيس في زوايا اسمه.. بين موجات صوته.. في ذكرى بلده الذي يجمعها به.. كان من البحرين ايضا.. من جزيرتها الحلم.. حضر هكذا بمنتهى الصدفة.. ليشرع بطقوس الوأد لمراهقتها المتأخرة..

في الأيام التالية وجدت بلقيس أخرى لم ينتبه لها أحـــد.. تحـــول شعرها المعقوف دوما الى حرير ينساب على اكتافها.. نظراتها الفضولية تبحث عنه.. وملابسها توحي بوقوف على المرآة لأكثر من دقائقها التي اعتادت.. حذائها الرياضي تغير لحذاء أكثر أنوثه.. لا أعلم لماذا يكون دوما لأحذيتنا انعكاسا لما ينتابنا من عشوائية المزاج.. مـــابين الراحـــة والارتفاع لعدة سنتيمترات تتخبط فيها المرأة مع نفسها وتدعي الثقة.. الحذاء دوما هو من يشرح وجهتنا.. طريقنا الذي سنقطع.. احلامنـــا التي سنلحق.. وحتى أوهامنا التي سنصدق.. حذائها كان المخبر السري الذي فضح ماتغير من تضاريس مشاعرها.. ومزاجها..

لاحظت ولادة الأنثى في صدر بلقيس.. أتعرفها كمـــا عرفـــت أنثاي أنا؟؟؟.. أم مازالت تتخبط في كينونية وجودها.. راقبتها بنشـــوة الوقوع بالعشق مجددا.. تتفتح كليلكة على فروع وجوده... وتهـــيم في محيط أبجديته.. تقطع تذاكر الجنون طوعا وتغزل في انثاها أصنافا مـــن الخجل... راقبت الخطوات الاولى والكلمات الاولى... والابتســـامات التي تبكي على محراب الامل..

سألتني بعدها بأيام فجر..

- وكأن بلقيس مجتهدة هذه الايـــام... أهنـــاك مشـــكلة في درجاتها؟؟
- لا أظن ولكنها تراجع الاستاذ في أمر ما..
- حسنا.. مريم.. بعد شـــهر تقريبـــا تكـــون الإجـــازة.. أتزورينا؟؟
- لا أعلم... أشعر بالغرابة ولا أعلم أن كان هناك من يريـــد التعرف علي.. ولكني أحب أن أتعرف على الجدة..
- سوف تحبينها.. أنها طيبة جدا... وذكية جدا..

وكأن الكلمات تتخبط في بال فجر.. مابين صمتها وترددها.. كشفتها..

- هناك شيء فجر.. أتريدين أن تخبريني بشيء..
- تريدين الحقيقة.. ليس هناك شيء محدد وفي الوقت ذاته هناك كل شيء يامريم..

وكأنني فهمت تماما إلى أين ستصل هذه المقدمة.. كانت فجر تتكلم بجدية لم أعهدها بها إلا في لقائنا الأول.. حيث تم المساس باختلافنا المتشوه على يد المتعصبين.. اختلافنا الذي يشطرنا الى نصفين على النصف الآخر أن يكون دوما على خطأ ودوما هو الخصم الضال عن الطريق..

- تعلمين تماما أن هناك في بلادنا.. وفيما بيننا خطوط حمراء لا يباح لنا قطعها أو حتى مراودة النفس بذلك بحكم الأعراف وسلطتها.. لاتفكري أنني هنا أحاول هدايتك أو حتى مناقشتك في اعتقاداتك، فلستُ متبحرة في علوم الدين ولا أملك من الشجاعة مايكفي لأقلب لك حياتك كما حدث من قبل لوالدك.. كل ماهنالك أنني لا اريد لموقفي أن يكون مبهما إذا ماحصل شيء مع العائلة.. أنا لا اعرف نواياهم.. ولا ماسيحصل فهو في علم الغيب ولكنني واثقة تماما أنني لا اريد التخلى عن قرابتنا ولن أسمح لصلة الدم أن تقطع مجددا..

سرت القشعريرة في جسدي، فقد كانت لكلمة الغيب التي نطقت بها فجر ببساطة ذكرى تلامس الحادي ووهمي وجريمتي العظمى في حق اليقين.. ذهبت بذاكرتي لصوت أمي.. لأحضانها المبللة بحفنات من دموعي.. لشكوتي وشكي وأسئلتي التي اعتقتها لتفضح ما يجول في

خلجات نفسي.. أستحضرني صوتها وهي تهدئ من روعي ورهبتي، تسألني عن اسباب خوفي ووجعي..

في ذلك اليوم كنت خائفة من الله.. خائفة من غضبه وعذابه.. ومن استجابته لدعوات النساء.. سمعتهم في المأتم يهمسون "لعن الله الشاك".. فشعرت بلعناتهم ترجمني وتثير في نفسي زوابع من الحيرة وأضعافاً من الشكوك.. أليس الشك صفة إنسانية بنا، متأصلة بقبولنا ورفضنا، بإيماننا وكفرنا.. ألا يجب أن أشك لأستقصي وأسأل.. ألا يجب أن أشك ليتربع الإطمئنان على عرش يقيني فأستكين.. وكان شكي الأكبر هو تهمتنا الكبرى في قناعتنا بعلوم الغيب..

كنت أشعر بمقدار صغري، بمقدار جهلي، بمقدار تفاهتي أمام هذا الكون.. وكانت أمي تداويني، تجهض حيرتي وتمرر لي ماكانت قبلا افكار أبي..

- هو أيضا كان يتساءل كثيرا.. كان يحلو له ربط الدين بما توصل له العلم من حقائق.. لذلك كان يبحث ليس فقط في الفيزياء الذي تخصص به، بل بكافة العلوم الأخرى، قال لي مرة أن للسماء لغة كالفنجان تماما حين نقرأه.. كل منهما يتحدث لنا بشيفرة خاصه لم نفهمها بعد، لم ندركها بعد كي نجيد طرق أبوابها.. فلو قلت لك ان الجو غائم في الغد.. هل ستقولين عن ذلك غيبا؟؟
- هذا علم وليس غيبا...

وأخذت تشرح لعقلي الصغير بماكان يفهمه أنذاك..

- ورغم ذلك هذا العلم قبل سنين كان يدعى غيبا حتى أدرك العقل كيف يقرأ لغة الطقس.. ولو أخبرتِ أحداً من عصور أخرى أن الشمس ستختفي غدا لكانوا اعتبروك الهاً

بالتأكيد.. هناك ياعزيزتي من العلم الذي نجهلـــه مـــايفوق معرفتنا أضعافا مضاعفه.. فللأشجار لغة، وللأرض لغـــة، وللأرقام لغة، وللأحلام لغة.. وحتى أجسادنا لهـــا لغتـــها الخاصة والبعض من الناس لهم القدرة على فك شفرات تلك اللغات وقراءة تاريخها أيضا.. فكري بها هكذا.. إن الغيب كلمة مطاطية المعنى لها القدرة على التمدد زمانا ومكانـــا.. ماضيٍ وحاضرٍ ومستقبل.. الغيب لغة خاصة لم يكشفها الله لنا ولكنه خص أوليائه ببعض حروفها..

ولكن.. هناك في هذه الدنيا أمور لايمكن التشكيك بها.. فكيف لعقل أن يشك بحرارة الشمس ووجود الأرض.. بضوء المصباح في قلب العتمة.. بنور الدين ووضوحه المطلق..

كيف له ان يتخبط في الجهل وهو يرى من الملكوت مايشـــير الى الله.. كيف له أن يكابر فطرته في تصديق الحقيقة وينضم لجموع مـــن المشككين.. فلا تدفني تساؤلاتك يوما دون ان تواريها الجواب..

حديثنا.. أمي وأنا.. فتح الباب أمامي يومها.. لتتـــدفق بعقلـــي مفاهيم من الاحتمالات والخيال لا سقف لها.. بدأت بوصلتي بالتحرك متجهة لجاذبية جديدة على هيئة أوراق وكلمات، أفكار ومجلـــدات.. بدأت أستشعر المجاعة التي كنت اعيشها على قارعة الجهل، جوع بدائي كانت رحلة إشباعه لاتتوقف وعطشه لايرتوى إلا بامتصـــاص حيـــاة أخرى قدمها أصحابها طوعا بين صفحات الكتب وعلى أرصفة العلم.. لم يعد الشك يخيفني و لم تعد له السلطة التي يمارس بها هيمنته علـــي.. فقد كنت أغتسل بالمعرفة في سبيل الله وأمارس التأمـــل في كونـــه.. فيتشربني اليقين على مهل.. ويتفتق من بين أضلاعي إيمان جديد..

– مريم.. أين ذهبتي..

أعادتني فجر إليها.. وإلي.. سحبتني من أحضان امي ورائحتـــها المتسربة من بين أصابع الذكرى

- وأين سأذهب، هاانا ذا أمامك، ولا تقلقي من شيء.. لـــن يحصل إلا ماكتبه الله لنا..
- تثقين بـــي.. صحيح؟؟
- وهل تشكين بذلك..
- ماهو الذي تشكان فيه.. أتتكلمان عني؟؟

وجاءت بلقيس.. لتسحبنا من بحور شائكة الأفكار.. لتخلصـــنا من كل ذلك الذي لم نقله بيننا وكان يجول في أذهاننا.. شبكت يديَ حول ذراع كل منهما لنسير الى اقرب مقهى يصادفنا.. ونتجرع مـــن القهوة أقواها، وأكثرها تنبيها وأيقاظا... بين جزيئات الكافيين تســـبح دماءنا فنصحو من صدمة الفكرة، وندفنها في أقرب تربة تشتاق لرفات جديد.. فكأنها لم تكن.. باب قديم مهترىء يغلق للمرة الالـــف بعـــد المليون.. يفصل دوما وعلى الرغم منا.. بيننا.. وبينهم..

كان الحديث عن كل شيء أخر قد حضر.. وحتى عن اختفـــاء بلقيس...

سألتها فجر..

- أين كنتِ كل هذا.. ماهـــذا الاجتـــهاد.. أعطونـــا ممـــا لديكم..
- أي اجتهاد.. كنت أناقش الاستاذ في بعض الاشياء فقط.. فالامتحانات قريبه أم أنك لم تلاحظي...
- ولهذا أنا أمر بمرحلة أكتئاب قصوى.. الله يستر..
- وماذا عنك يا مريم..

أجبتها بهدوء متعمد..

- ماذا عني.. سأذاكر.. سأقرأ السؤال.. سأضع الإجابة.. انتهى..
- ستذبحني هذه البنت.. ألا تعيرينني ذاكرتك يوم الامتحان.. لا اعرف كيف تحفظين كل هذا الكم من المعلومات... وتجيبين عن كل تلك الاسئلة بذلك الوقت...
- لأنني ادرس ما أحب أن اقرأ واتعلم.. فكيف لا تريدينني ان اعرف الجواب..

وهنا اجابت فجر بحيوتها الطاغية..

- أرجوك بلقيس.. هذه صفة عائليه يصعب عليك تصديقها ولكننا نمتلك ذاكرة اقوى من الذاكرة الإلكترونية.. وزوجي يشهد بذلك...
- هههههه... أترقبين الرجل.. ارحميه يابنتي..
- المشكلة انهم يدمنون الكذب ولايعرفون كيف يحكمون أربطته، حتى وإن كانت الكذبة تافهة.. دوما ينسون بعض التفاصيل..
- مارأيك لو تفتتحي معهدا خاصا تعلمين فيه الكذب بذكاء.. ستربحين ذهبا.. وسأتولى الإدارة ماذا قلتي...
- قلت أستفيقي من الأحلام.. سأترككم الان علي اللحاق بزوجي العزيز.. فلديه غذاء عمل اليوم.. وعلي أن اكون موجودة لأتعرف بزوجات الاخرين..
- مجاملات اجتماعية.. اتركيها عنك وركزي في إمتحاناتك..
- امتحاناتي ياعزيزتي لن تحمي زواجي.. الى اللقاء...

لماذا.. تتكرر هنا ايضا.. لماذا على المرأة ان تكافح دوما في سبيل الحفاظ على زواجها.. لماذا دوما هناك خطر.. والامان لايكون

موجودا الا بنسبة تقل دوما عن المئه... لماذا يشعر الرجل انه متفضل بالزواج منها... وبالها في نعمة لأنه لم يتزوج بأخرى تتشارك معها في مايتفضل به من الوقت.. دوما عليها ان تحرث اراضيها الزوجية.. وتتخلص من الاشواك والنباتات الضارة وإن ادمتها.. دوما عليها الاعتناء والمراقبة.. دوما عليها ان تحب وتتفهم وتضحي وإن لم ترغب.. دوما عليها أن ترضخ لرغباته، لنزواته، لأفكاره العشوائية وترقيعها إن كان مخطئاً كي تنضم لسرب من الزوجات الصالحات...

في تلك الليلة.. وعلى مائدة العشاء.. غامرت وسكبت مخاوفي على أطباق كريم..

- هل ستخبرني أذا ما أردت فعل شيء يسيء لي..
- ماهذا الذي تقولينه.. وكيف استطيع أن أسيء لحبيبتي...
- كريم.. أنا واقعية لدرجة تخيفني، وواضحة فوق ماتتصور، ولكني لا أحب أن أتألم كما لا احب الكذب والخداع، ونحن في بداية حياتنا، وأحتاج منك أن تعدني بالحفاظ على الاحترام فيما بيننا..
- اتظنينني من ذلك الصنف من الرجال؟؟ من صنف المخادعين؟؟!
- لا.. لا أظن ذلك.. وكل أمرأة أخرى لا تظن ذلك أيضا.. ولهذا تكون الصدمة كبرى بالأمس لم تكن تحبني وكان حبك لأخرى.. ربما أتحول يوما أنا لأكون تلك الاخرى أيضا..
- لاتقلقي.. أعدك بالمحافظة عليك وحمايتك حتى من نفسي.. أعرف أن زواجي من لمار سبب شرخا في علاقتنا حتى قبل أن تبدأ، ولكن ظروفها لن تتكرر، لن أكون وحدي وأنت

معي، لن تبهرني أمرأة أخرى وأنت معي، لن أتمكن من النظر الى أي منهن وصورتك مطبوعة في عيني، أعجبت يوما بعقل ومصطلحات علميه ومشارط، ونسيت ان هناك بقية لم اعرفها.. أنت من علمتني كيف أرى.. لم أعد طبيبا فقط.. أشعر بأني قد أصبحت أنسانا وأنت معي.. بربك أصبحت أتكلم كشخص لا اعرفه وأنت معي..

- ....
- اتعلمين أظنني كنت أشبه بيجماليون.. فلم أكن أؤمن بالنساء.. حتى أتيتني... قلبتني.. أشعر بنفسي كمعجون من الصلصال يتوق للتشكل بين يديك.. في غمرة حيرتي أدمنت الشعر، لعلي أجيد فهمك والوصول اليك.. ارتدي حجابك وتعالي معي.. سأريك شيئا..

أمسك بيدي.. ليأخذني للطابق الذي يعلو شقتنا حيث العمارة التي نسكن... في شقة أخرى لم تسكن بها لمار قبلاً.. لم يكن هناك سريرها.. ولا مرآتها.. ولا حتى طلاء جدرانها.. كان لها طابعي أنا... الواني أنا، أرضيتي، أريكتي، مكتبتي، مبخري.. وحتى سرير لي.. أنا...

- متى فعلت كل هذا..
- عندما لا تكونين هنا...
- لماذا؟؟
- لأنني.. أحبك..

لم يكن هنالك حاجة لقول المزيد.. فقد صدقته بكل جوارحي.. وأغلقنا باب شكي.. وباب الشقة الاخرى.. ليظل الباب الذي يجمعنا الان معا.. لتبدأ حكايتنا معاً.. لأنصهر أنا وأنثاي معا.. بين صدى عينيه..

11

مضت أيام الدراسة سريعا.. وكانت بلقيسي فيها مابين الكتب الدراسية، والاشعار.. تقرأ لي مايستوقفها من كلمات لنزار، لدرويش والحداد.. فتستوقفني أنا الأخرى لنصبح اثنتان تسبحان في نهر من الشعر والكلمات.. في هذا اليوم كان الدور لجدارية درويش.. قرأتها وأعادة قراءتها، ضاعت، أبحرت وتحررت ثم قامت بترتيلها كتعويذة علي، مارست بحقي غواية لا مهرب منها.. فتهت بين براثنها..

هذا البحرُ.. لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ.. لي
واسمي.. وإن أخطأتُ لفظ اسمي على التابوت
لي
أَما أَنا... وقد امتلأتُ
بكُلِّ أَسباب الرحيل
فلستُ لي..
أَنا لَستُ لي..
أَنا لَستُ لي...

- لا أعرف لما لا استطيع التوقف عن قراءة الشعر هذه الايام.. وكأنهم يصفون ما أشعر به.. تائهة في كلماتهم،

مصدومة من وصفها الواضح لمشاعري المتضاربة... أشعر بامتلاك الكون بأسره وفي الوقت ذاته لم أعد أشعر بأني أنا.. لم أعد أشعر بأنني لي.. تماما كما يقول درويش...

أجبتها وأنا اعي تماما ماتقصده...

- هذا أمر طبيعي.. فأنت الأن شخص أخر.. واقع في الحب..
- شعوري فوق مستوى الإدراك، متخبط بين الثقة والخوف، يطرق نوافذ السعادة ويهرب من ابواب الرهبة والقلق.. كل المشاعر موجودة لدي.. وحين يصل هو.. لا أجد في قلبي سوى الروعة.. فأهيم في كلماته.. كما أهيم في الشعر تماما.. كلاهما نوع من المورفين اللذيذ.. مشروع متهور من السحروالنشوه.. ولا أظنني أريد التوقف عن ادمانه يوما...

كما يقول نزار أرأيت نهرا عاد يوما للوراء.. من يستطيع ان يعود كما كان قبل أن يجرب الحب.. قبل أن يلدغ بسحره.. قبل أن يشرب من بحره.. قبل ان يكون ما أصبح عليه بعده.. لا أتصور شخصا يستطيع العودة يوما لما قبل الحب.. فبه اصبحت أعرف أين أسير ولمن أسير.. أصبحت أدرك معنى ثبات قدمي على الاسفلت في الطريق، وفي الوقت ذاته أتناثر كزبد مع ذرات القدر.. أصبحت أدرك ما يقصدونه بالأمان، شعور جديد لايستطيع العبور الينا بسهوله فقد تعودنا غيابه أكثر منه حاضراً، كنا نحن من نحمي قشورنا الهشة خوفا من نسمات تخدشها أو ضوء يصهرها، نحميها تحت طبقات سبع غلاظ من الأعراف والخوف، نحميها من كلمات مشحوذة النصل خدشها الأول هو بداية النزف الذي يصل بنا للموت البطيء...

أراني كيف كنت حين تتحدث بلقيس.. بمراهقة الحب في أيامه الأولى.. تتحدث عنه فأزداد شوقا لكريم.. تصفه لأبحر في تضاريس كريم.. تثرثر عنه فأمارس في شعوذةٍ أستحضاراً لروح كريم...

وانطلقت لألتحف بجدران تخص رجلاً أشاركه في النسب الى الحياة.. وما أن وصلت حتى وجدت في انتظاري رجلا أخر.. تذكرته على الفور.. فهو من رأيته يتحدث مع لمار في المرة الاخيرة التي كانت هنا... بدون مقدمات سألني وكأنه يعرفني....

- أنت مريم.. صحيح؟؟
- نعم؟!!
- مرحبا.. أنا وليد.. أبن عمك عبد العزيز..

وبحركة غريبة جدا.. مد يده ليسلم علي.. حتى أهل لندن كانوا يراعون الطقوس التي تترافق مع الحجاب.. كالصنم وقفت.. فلم أجد ما أرد به على يده المعلقة في انتظار، والتي في عرفنا لايجوز مدها لتحية النساء..

- أعذريني.. يتصرف الانسان لا ارادیا بحكم المكان... وكما يقولون عندما تكون في روما تصرف كما يتصرف الرومان.. هل استطيع التحدث معك قليلا يابنت العم..
- أعذرني.. زوجي ليس موجودا الان ولا استطيع ان اقول لك تفضل.. فليكن في وقت اخر..
- في أي وقت يناسبك.. ولكن أقبلي عزومتي على القهوة هذا المساء.. اريد التعرف على قريبتي التى لم اعرف بوجودها من قبل.. كما وانني اريدك ان تعرفي ان لك ابن عم لا يتأخر في المساعدة فيما لو احتجتي.. هذا هو كرتي كي تتصلي بأي وقت... أتوقع لامانع من فنجان قهوة على الأقل؟؟

- بالطبع.. أنشاء الله..

وغادر.. ولكنه ترك في قلبـــي رهبة التوجس بشر قريب، كانت فجر قد انبتت جذوره مسبقاً، أخبرت عنه كريم.. الذي وجدها فرصة للتعرف على عائلتي أكثر.. ولقطع خيوط الخوف التي تتملكنا مـــا أن يتسلل ذكرهم الى أحاديثنا.. لم يكن يحب الهرب أو التأجيل فكل لحظة لانواجه الواقع فيها تكون ضد مصلحة المريض.. هكذا كـــان دومـــا تفكير كريم.. وفي هذه الحالة كنت أنا من يلعب دور المريض..

في نفس الليلة كان لنا لقاء في المقهى المجاور... ومنذ بدايته بدأت معه الحرب الباردة التي شنها وليد.. كانت واضحا جدا كلمات لمـــار المعشوشبة عبر حروفه.. افكاره المسبقة ضد كريم جعلته يضع نفسه في موقف المحامي الذي لم أنصبه.. وكما قالت فجر تماما.. عـــين نفســـه وصيا رغماً عني.. كان يوجه تحذيرا تلو الاخر.. وكلاما غريبا ينصب في واقع انتمائي له، ولهم.. لم أستطع فهم مايقوله ولا ادراك الاهميـــة العظمى لعلاقة لم تكن يوما تجمعني بما أنتسب له في خانة العائلة... 15 دقيقه كان اجتماعنا على قهوة وتعارف وعروض حماية ممررةٍ من تحت الطاولة.. حتى أن كريم قال لي ليلتها قبل أن يخلد للنوم..

- يبدو أن ابن عمك هذا لديه قناعة اننـــا أجبرنـــاك علـــى الزواج..

ليس بإمكان قناعاته أن تؤثر بحياتي.. غفوت وأنا اردد ذلـــك.. كنت مقتنعة أنني المتحكمة في حياتي.. أن لا أحد يستطيع إجباري على امر لا أريده.. ورغم ذلك أُجبرت بحكم اللباقة على استقبال مكالمات ابن العم التي يكون دافعها الأول الاطمئنان علي.. ودوما كان يحـــاول الانخراط بحديث يبني به جسرا لااعلم أين يريد أن يصل بـــه.. كـــان يهديني السلام من أشخاص لا اعرفهم يترقبون لقائي.. ويخطط لزيارة

لا اعرف لها زماناً أو مكان كي ألتقي بهم.. كان وجوده يثير الاختناق بصدري.. والغيرة الطافية على صدر كريم والتي يقاومها بعقلانية طبيب...

في هذه الأثناء كنا نقترب من اتمام عام زواجنا الثاني حين بدأت أحداث الربيع العربي 2011.. عام ليس له علاقة بالربيع ولا حتى الخريف.. بدأ بنيران اشتعلت في جسد بشري... لكأن العالم بعدها أصيب بلوثة من الجنون.. كان اسم بوعزيزي يرفع ضد الظلم.. رغم أنه فليرحمه الله كان قانطا من الرحمة.. شخص دفعه اليأس لإشعال نفسه ليشتعل العالم كله من بعده في ثورة من الغضب العارم.. كان انفجارا مدويا سببه غل قديم.. ظل ينمو في الخفاء داخل أنفاسنا العربية.. ظل يروي نفسه عطشا لصوت الاحتجاج.. ذلك الغضب الجاثم كان فقط يحتاج لتنشيط.. لأحد العوامل المساعدة التي تعمل فقط على تسريع الانفجار.. وهذا تماما ما كان يمثله بو عزيزي.. العامل المساعد.. فتيلة الاشتعال..

أخبار العالم العربي كانت تشغلنا.. وتصلنا بدوي متعاقب ومتناقض عبر مواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب، مشاهد لم تكن لأفلام أو اعلانات، كانت مشاهداً توثق الشارع ومايعتليه من صدق وثورة وجنون.. شعرت بالصدمة أمام هذه الهمجية التي وجدت طريقها من جديد لكائنات يفترض أن يكونوا مثالا للرقي والتحضر.. همجية خلعت رداء الأنسانية من جلودهم كبشر وأعادتهم لقرون كنت أظنها قد مضت، ولكنها عادت كي تسلك مسارها من جديد عبر دائرة الزمن لتدور بنا في نظام لايقبل التفاوض أوالتجاوز لأيٍ من محطاته.. مرت على بلادنا بقساوة لتشكل فينا الاحلام والذكرى.. ولتكتب تاريخا جديدا يكاد يزداد خبثا ومكرا..

كانت المرة الاولى التي اتعرف بها على المعنى الحقيقي لكلمة سحل.. يعرضها الشارع المصري وتلتقطها كاميرات الصدفة للمؤرخين الجدد ليعود زمن هيباتيا [1] من جديد... المرة الاولى التي اتعرف فيها على بدائية البشرالحقيقيه حين تلغى المحاكم وتُطبق الاعدامات على ارصفة الشوارع.. المرة الاولى التي أقف فيها أتفرج على جمع غفير يهتف ضد الظلم والنظام.. ويتقدم هذا الجمع اعلامٌ ترفعها أنامل بلقيس.. أراها بجانب نزارها تهتف احتجاجا وقهرا.. تتفجر فيها انتمائها لأرض هتك في ليلها ستر الدماء، أرض كانت قد هجرت ترابها يوما وحين بكت تفجر الدمع فيها من مقلتي بلقيس...

فخري بها يوازي خوفي عليها من دوامة لانعرف من أين بدأت ولا الى أين تنوي الذهاب.. هي والملايين الأخرين يرفضون الأمر ذاته ويطالبون بمليون أمر جديد يهتفون بلا توقف، بلا خوف تنفيذا لوصية درويش "خلوه جرحاً راعفاً.. لا يعرف الضماد"...

لم أكن حيث كانت.. لم أجد لصراخها أذناً منصتة ولا لحزنها أحضاناً مواسيه.. لم يكن هناك الا جدران مضمخة بالصدى..

أخترت على العكس منها الحياد رغم خيبته وقهره.. فلم أجد لي سلاحاً أدافع به ضد الجنون الذي تغلغل عبر اوردة العرب.. كان مؤلما أن الحياة لازالت تستمر في هذا الطرف من الحياد.. ورغم ماكنا نهديه من دموع ودعاء للطرف الأخر الا أننا شعرنا بذل العجز والهوان...

---

1 هيباتيا: فيلسوفه وعالمه في الرياضيات عاشت في مصر الرومانيه وماتت على يد حشد من الغوغاء المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر والإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية حيث تم سحلها في شوارع الإسكندريه حتى تفسخ جلدها.

كان مرعبا أن تكون اراء البشر سببا في تقييد حريتهم والتشكيك بمقدار وطنيتهم... فقد كانت هناك حرب اخرى تجري بين ابناء وطني.. ظهرت تيارات لم أكن أعرف معناها حتى، كانت تتمازج بعناد مثل شراب من الكوكتيل منفصل الطبقات يتشكل في كأس يمثله الوطن.. كل منها يؤيد لونه ونكهته وأصله ويرفض الاندماج او الاختلاط بفئات أخرى... كانت الحرب بين هذه التيارات تلعب دورها في جعلنا وبالرغم منا نتخذ صفا ما يكون ضد الصفوف الاخرى.. حتى الحياد في هذه الحرب لم يستطع مواصلة البقاء.. فقد كان يعتبر هو الآخر أحد الصفوف..

كان كريم ينغمس أكثر في بحوثه وعملياته.. وكنت أغرق أكثر في وحدتي وكتبي وحنيني لرائحة البلاد..

12

في نهاية العام.. اتى اليوم الذي تركت فيه كريم قبل انتهاءه من امتحاناته بأسبوع واحد لألبي نداء جدي الأخير بلقائي، كان في العناية المشددة جراء نوبة قلبية حادة، لم يكن خائفا بقدر ماكان مشتاقا لنا جميعا، كان يهذي احيانا ويباغتنا بحكاياته احيانا أخرى، إلا ان أرادة الله كانت أن تختاره لمفارقة هذه الدنيا... أراحني أنني رأيته قبل ساعات من وداعه، أنني ضممته وقبلته لمرة أخيره، وأنني أجبته حين سألني براءة الذمة..

ومابين ثريا وحنان عادت ذكريات الفقد والتسربل بالسواد، روتين مرعب في دقة شعائره وتفاصيله، حزن ساد بيتنا للمرة الثانية.. وكأنه درس آخر من دروس الاشتياق نتلقاه مجبلين.. وعلى غير موعد كانت هناك صدمة اللقاء بدمائي الاخرى التي أتت لتقديم المؤازرة والعزاء..

وصلت فجر مع أمرأة تشبهني.. توأمة أبي.. تتوسطهما أمرأة كبيرة في السن عرفتها فورا.. ولكنني لم أتعرف على مشاعري حينها.. لم أخف، لم أفكر، لم أخترع سيناريو محكم النص من أجل ترك انطباع لديها.. كل ما مر ببالي أنها يفترض أن تكون أقرب الناس لي في هذه الدنيا بعد من فقدت وأفتقد.. كنت أتخيل طعم أحضانها، رخامة صوتها، وكل الذكريات التي كنت أستطيع أن أرسم معها.. كنا نتأمل في بعضنا صورة واحده.. أبي أنا.. وابنها هي..

جلست معها أتأملها فقط ولا كلمات لدي كي اقـــدمها لهـــا، أختفت كلها من جعبتي.. كل الأسئلة التي خططت لها محيـــت مـــن مفكرتي.. كل الحكايات التي كنت اريد اجزاءهـــا المفقـــودة فجـــأة ماعادت مهمة لدي أمام يدها الممسكة بيدي.. ظل الصمت يحوم بيننا الى أن اغتالته بجملة واحده..

- تشبهين والدك حتى في صمته...

اجتاحني على إثرها جوع همجي لأحضانها، لحنانها، لشتاتي النازح بين جدائل شعرها وخضاب يديها.. كان لأحضانها قداسة لم أعهدها من قبل.. لكأن تيارا من دماء أبـــــي ينـــتفض في عروقـــي مـــا أن سكنتها... أشعرت دمائي بانتمائها لها؟؟ أم أنها تعرفت علـــى بصـــمة رائحتها مذ كانت تسكن في عروق ابـــي؟؟ لم أهـــتم بالإجابـــة ولا بتفسير هذا الاحساس المتمازج بين الدفء والارتعاش، بين الـــزلازل والثبات، بين الضجيج والسكون... شعور بالأمان في احضانها ذكرني بما كنت أعرفه حين كنت أسكن أحضان أمي...

ورغم دوي الصمت الذي كان بيننا.. كان لابد لها من الحديث..

- سمعت من وليد حديثا لايسر... ومن فجر حديثا آخر.. لا اريد ان اعيد مما سمعت شيئا ولا أن يفسر لي منه شـــيء.. ولكن عليك أنت أن تفهمي أن بابـــي مفتوح لك متى ما أردت فأنت ابنت الغالي رحمه الله.. الذي لم ينساني حـــين سماك على أسمي..

نظرت لفجر ممتنةً لها أن أخفت عني هذا التفصيل الصغير.. فوقع المفاجأة من مريم الآخر كان يستدرجني لوطن جديد.. أرض جديـــدة مددتها بين يديها بإذن من أبـــي الراحل قبل سنين.. تتفتق مـــن بـــين أصابعها ارتعاشات لفرحي المعلق باسمها..

- الحمد لله أن كحلت عيني برؤيتكِ.. وليس لدي غير طلب واحد..
- أأمريني...
- بالله عليكِ تناديني يماه..
- يماه.. يمااااه..

كررتها مئات المرات بين يديها... بين قبلاتي المتعاقبة مابين رأسها وخديها.. بثثتها اشتياقي الذي لم أفهمه طول السنين الماضية ومساحتها المعتمة في داخلي والتي فاضت اليوم بوجودها.. أخبرتها كل خلية بجسدي عما أشعر به من أحاسيس الظلم، والتي تهاجمني حين افكر بأنها لم تعلم بوجودي، لم تدعو لي في صلاتها، لم تخبيء لي الحلوى، لم تمسح لي دموعي أوتعاقب لأجل خاطري أحفادها الأخرين.. ظلت تأشيرة دخولي لعالمها معلقة، لم تسمح لها سلطات الكون يوما بالمرور، وها قد تم الختم عليها بالموافقة اليوم نتيجة لصدفة جمعتني بفجر قبل عام.. وبوساطة عظمى ويا للغرابة من وليد...

وليد الذي لم يستطع تمالك نفسه لكي يلقي علي هول افكاره وخططه التي اقحمني بها، فوجئت به يحادثني عن طلاقي!! وأن ابن العم أولى بي من الغريب، أن سعادتي لايمكن ان احصل عليها بعيدا عنه، وانه لايستحقني شخص قد اهدر كرامتي مثل كريم لايتكافيء معي في النسب..

تورم في صدري الخوف من كلماته التي تجرأ بإلقائها على مسمعي.. من شخصه الذي لم أعرف والذي فرض وجوده بالرغم مني.. فأي حب هذا الذي أكتشفه عبر الاسابيع الماضية والذي يأمرني مقابله بـ التضحية بحياتي... أي مجنون هو.. وأي حماقة هذه التي يرتكبها بحقي، دون خوف من حساب أحد، دون حياء من مراسم

حزني وألمي، دون احترام لوجود زوج لي تركته كمبتعث وحيد لايعلم أي نوع من القطط يخربش على أبواب عرضه ومحارمه..

أي جرأة وأي تهور هذا التي يرتكبه وليد متوارياً عن قوانين العقل والمنطق.. لم يستطع قبول الرفض وكأنه يصر على استرجاع مالا يحق له، فارضاً نفسه في عنجهية مطلقه.. فماكان مني إلا الدفاع عن كوني بكل ماأستطيع لتصل له كلمة "لا".. قطعت أمامه جميع الطرق الي مسلطة خالي أحمد للدفاع عني، لحماية زوجة ابنه الغائب، لحماية أبنه من لوثة قد توقد في رجولته أحطابا سحيقة القدم.. تسكن دوما في عروق الرجال...

13

"دمنا هو الذي يحدد هويتنـــا.. ويقيـــدنا.. وبســـببه تصـــيبنا اللعنات.."[1]

وكأن وليد هو اللعنة التى اصابني بها دمي، هو اليد التي تســـللت كي تعبث في تفاصيل حياتي، هو من قطع افطارنا حين وصلنا أستدعاء من المحكمة لدعوى ابطال الزواج والذي تم دون موافقة ولي الامـــر.. عمي المبجل عبد العزيز!!

لم تشر أصابعي في تلك اللحظة إلا لوليد.. أي مقصلة للوجـــع كان يلهو بها حول رقبتي، واي هجوم هذا الذي شنه على عالمي، بأي صفة يمارس معاركه على أرضي، بأي صفة يحولني لدمية من قمـــاش، تتحرك خيوطي حين تأذن لها اصابعه، كي أمـــارس مجبولـــة دوري في مسرحيته الهزلية..

كان لابد من مراجعة المحاكم والانتقال من شخص لأخر كـــي أفهم أنني لا أقرر شيئا هنا دون توكيل أحد الرجال.. لابد من رجل في حياتي كي يقول باسمي ما أريد، فعلى مايبدو فإن صوتي ويالعجـــب.. عورة!!... لابد من رجل في حياتي كي يتأكد من سلامة الطريق حيث أسير لأنجو من وعورتها وذئابها المتعطشة للإنقضاض!!... لابد من رجل في حياتي كي يقوم بغربلة أفكاري ومحاكمة كلماتي لتنقيحها قبـــل أن تصل الى مسامع الأخرين!!..

---

1 مقتبس من فيلم Dark Shadow.

بدأت هنا أتلمس الواقع الذي كانت تتحدث عنه فجر.. مقيدة أنا بموافقة رجل كي أنال حقي في امتلاك تفاصيل حياتي كامرأة في مجتمع تحكمه ذكورة مطلقه..

شعرت بغربتي ووحشتي التي تفجرت بسبب بعدك ياكريم.. اين أنت الان، أي طائرة تخترق هذه السماء كي تصل إلي الأن، كي ترى مايهددنا بعد لمار.. كي ترى كيف أستبيح طريقنا المعشوشب بالأمل فجأة من قبل الخوف والقلق..

ها أنا ذا أعتكف في غرفة أمي أتلمس ماتبقى من غبار حنانها وأمانها.. ورائحتها التي ماعادت تسكن وسادتها.. هذا المحراب الذي يرتشفني بذاكرة جدرانه وينأى بي بعيدا عن حمى الغضب التي أعترت الجميع.. كثير ما يمارس الوجع غوايته لتولد القوة فينا.. وها أنا ذا الوك دهشتي وغضبي وألج بنفسي داخل يقيني وثقتي برحمة الله..

هذا هو اليوم التاسع بتوقيت بعدك، بتوقيت غيابك عن عيني، بتوقيت شوقي الممتد عبر مسافات تباعدنا توازي في نظري حقبة من الزمن.. هاهي أنثاي تنصهر عبر حواسي لتصبح أخيرا أنا، فماعادت تحيرني، ما عدت أحيرني، أصبحت افهمني تماما، واعرف تماما مأريد، وعلى أي أرض أسير وإلى أي شخص أسير... في غمرة الجنون المهيمن خارج هذه الغرفه، بدأت تسكنني القوه، ممتدة عبر دمائي، عبر هويتي، عبرقيودي المنصهرة فوق أرادتي، بدأ يسكن في جوفي قلبان، روحان تتعارفان على مقربة من الحياة..

نعم أصبح هناك من يسكنني ويتمازج عبر دمائه دمي.. لم أكن أحتاج لاختصاصي كي يخبرني بحملي بل كنت أحتاجك أنت كي أخبرك عن وجوده بداخلي.. انتظرك أمام النافذة تماما كالماضي.. انتظر

انتهاء هذا اليوم كي تصل طائرتك لأرضنا.. وتعود الحياة لي كما كانت من جديد..

تسحبني حنان من محرابي بهدوئها الجديد.. لقد تغيرت كثيرا خلال هذا العام، دورها كعمة اكسبها لمسة من الامومة اضافة لسعادتها مزيدا من البريق، يضاهي بريق ذلك الخاتم المحيط باصبعها.. توقفت وهي تمسك بمقبض الباب..

- مريم.. هناك زوار..

ذهبت لاستقبالهم متأملة وجود فجر.. ومرتدية ما استطعت من حلم وصبر..

وكانت هناك بجانب رجل يبدو على مشارف السبعين من عمره يتوكأ على عصاه لتتوكأ على دهشتي كلمات فجر وهي تعرفني به..

- اعرفك بخالي، وعمك عبد العزيز.. أبو وليد..

ابتلعت جميع أحاسيسي كي أتمكن من مواجهته.. الأن وقبل ساعات من رجوع كريم أختار أن يأتي.. لماذا؟؟ بعد طعني، وخنقي ووأدي.. يأتي الي الأن؟؟ لماذا؟؟

متلمسا حيرتي بدأ في الإجابة...

- اعرف تماما ماتشعرين به، اتيت بنفسي كي أطمئنك ان الدعوة قد سحبت وعاد كل شيء كما كان.. وكي أعتذر عن تصرف ابني الذي لم يوافق عليه أي فرد منا..
- لماذا.. لماذا حدث كل ذلك إذن؟؟

أخرج حزمة من الاوراق من جيبه ووضعها على الطاولة وقال وهو يشير اليها..

- بسبب هذه.. انها الأوراق التي تثبت نصيب والدك من إرث الوالد يرحمه الله.. والذي اصبح نصيبك الأن...

- أي إرث.. والدي قد توفي قبل سنين من وفاة والده..
- لقد قطعنا عهدا للوالد رحمه الله أن لانأتي على ذكر والدك أو أن نبحث عنه، والتزمنا جميعا بعهدنا، ولكنه ابدا لم يذكر حرمانه من الميراث أو يكتب وصية بخصوص ذلك، وبعد وفاته قمت بموافقة الجميع على فتح حساب خاص بنصيبه من الارث ليتسلمه حال عودته أو مطالبته بذلك.. إلا انه لم يأتي..

نعم لم يكن ليأتي وقد أختطفه الموت متسربا من حياتنا جميعا.. اقتنصت فجر صمت عمي كي توضح المسألة دون مزيد من الاحراج له..

- يبدو ان وليد كان يعرف بموضوع هذه الاموال.. وكل مافعله كان للإستيلاء عليها..
- فلماذا تمنحونني إياها الأن؟؟ لا حق لي بها..

أجابني كأب مفجوع بامتلاكه لإبن جشع.. وكأب يطمح لاحتواء ابنة جديدة..

- بمباركة والدتي وجميع العائلة قررنا تسليمك اياه، اعتبريه رغبة منا في تسكين ضميرنا لتقصيرنا معك ومع اخينا غفر الله له.. او كعربون محبة ورغبة خالصة في ارتباطك بنا.. فانت في النهاية من لحمنا ودمنا.. ولن نقبل منك الرفض إلا إذا لم ترغبي بوجودنا في حياتك..

بحثت عن عيني فجر لأجدها تعدني بالسعادة والرضا.. لم تكن هناك إذا من حروب بيننا.. ولن تكون هناك إراقة لاعتقاداتي ويقيني.. كل ماكان هو رجل جشع وطامع بالمال فقط.. لم تكن هناك إلا الإنسانية بيننا موشومة بهذا الرصيد من الاموال.. رباط مقدس يجمعنا

لاتتمكن من قطعه كل حروب الطوائف والأديان.. دم موحد خالٍ من اللعنات يماثل دماء جديدة خلقت بداخلي تصـــرخ معلنـــة انتمائهـــا لكريم.. ولي.. انتمائها بالرغم من الكون بأسره لنا ولهم..

تحركت من مكاني خالعة تخشبـــي وهيبتي وخوفي الموروث قسرا عبر أجيال.. لأطبع على رأس عمي قبلة الاحترام.. وعلى يـــده قبلـــة الانتماء...

تمت في شتاء 2012

نحن دوما قابعون خلف الستائر..

نختلس النظر لجرأة الاخرين..

لشراستهم في ممارسة الحياة.. لخطواتهم الممتدة بفاصل عمر كامل..

لوأدهم المبكر.. لكل لحظة يأس.. ولكل "لا"..

هذه الكلمات.. كما لفظتها تماما من جوف هلوستي..

أخرسني بوحي بها في لحظة جرأة..

لتمارس أصابعي.. عتقها..

وبيننا أنثى

رواية

رنـــده العمـاني

• روائية من السعودية

لا أعرف ما كان يشعّ من عين كريم في تلك اللحظة.. لم يكن غضباً فقط.. ولا قلقاً فقط.. كان أشياء أخرى تحترق.. اشعلت رائحتها في أنوثتي نشوة عارمة.. كان امراً عادياً أن يقوم الأخ بإيصال شقيقته وصديقاتها في القطيف.. كان امراً عادياً أن يذهب بهم للمجمعات التجارية أو المنتزهات.. أفلا يكون عادياً في لندن يا ترى؟؟ أم أنه لم يكن عادياً فقط في نظر كريم؟؟

وفي وسط الهدوء قال تصبحين على خير وذهب.. وتركني أتخبط في صخب ما لم يقله.. لاجماً لكل ما رأيته في عينيه..

ما بين ذهابه ودقة الباب الثانية كانت دقائق معدودة.. حتى لكأن المسافة بيني وبين الباب أميال عديدة.. كيف تفجر شوقي له مجدداً.. وكيف استطاع أن يحيا ببساطة بعد عملية وأدٍ استنزفت مني طاقتي وقدرتي على التوسّد بالأحلام..

ولكن.. لم يكن هو خلف الباب..

دفعتني لمار وأغلقت الباب وشرارات الحقد تحرق جلدها.. متّقدة بجمرات من الغيرة..

لوحة الغلاف للفنانة روى البازركان
ruaabazirgan@yahoo.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1040-3

9 786140 110403

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com